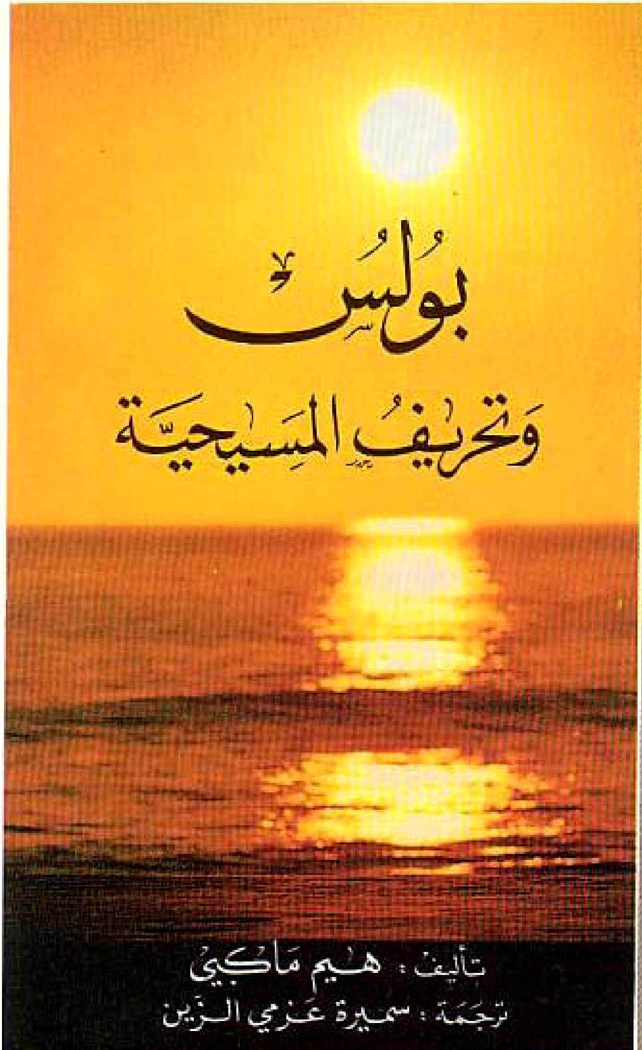
(٣)

من أجل الحقيقة



بولس
وتحريف المسيحية

تأليف: هيم ماكبي

ترجمة: سميرة عزمي الزين

منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية

مِنْ أجْل الحَقيقَة (٣)

بُولُس

وَتحريفُ المَسِيحيَّة

تأليف: هيم مَاكبي

ترجَمَة: سميرة عَزمي الزَين

منشورات المعهد الدّولي لِلدّراساتِ الإنسانية

مقدّمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

من هو المؤسس الفعلي للمسيحية المعروفة اليوم ؟ .

يجيب مؤلف كتابنا على هذا السؤال دون تردد : إنه بولس الطرسوسي وليس عيسى عليه السلام كما توهمنا بذلك الكنيسة الرسمية وتاريخها وأناجيلها التي حرفتها وزيفتها مراراً وتكراراً لإخفاء الحقيقة .

وقارىء هذا الكتاب الذي ألفه واحد من ألمع مؤرخي الأديان في عصرنا سيتأكد بالحجة التاريخية أن عيسى عليه السلام وحوارييه براء من كل هذه المسيحية التي اخترعها بولس الطرسوسي ولفق عقائدها من وثنيات العالم القديم وخرافاته وأساطيره . فلا شخصية عيسى عليه السلام التي تزعم الكنيسة وأناجيلها بأنه رب ، ولا عقائد المسيحية السائدة من فداء وخلاص وصلب وخطيئة وقربان مقدس ، ولا الكنيسة التي صارت مؤسسة للتوسط ومرتعاً للكهنوت والرهبان كان معروفاً في حياة المسيح أو أيام حوارييه الذين آمنوا به وشهدوه وعرفوه .

وبولس هذا من أعجب مغامري التاريخ ، فهو لم ير عيسى عليه السلام ، ولم يعرفه ، ولم يسمع منه أو من حوارييه . ومع ذلك فإنه يزعم أن عيسى عليه السلام قد ظهر له وأعطاه الأمر بتبليغ هذه

المسيحية التي نقضت ما فعله المسيح طوال حياته وناقضت ما كان يؤمن به الحواريون والمسيحيون الأوائل . لقد اخترع هذا الأفّاق أسطورة طارت إلى أبعد من حدود عقله وتصوره . إنها أسطورة القوة التي ذهبت برسالة المسيح وطمست ما استطاعت أن تطمسه من وثائق ديانته وتاريخ أتباعه الأوائل .

لقد وُلد بولس في طرسوس من أعمال كيليكا من أصل يهودي (كما يزعم) ، ثم هاجر إلى القدس فعمل شرطياً مخبراً عند الكاهن الأكبر الذي يعمل لحساب روما . وكان يطارد أتباع عيسى عليه السلام ويعذبهم ويسجنهم ويقتلهم . وفجأة ظهر عيسى عليه السلام لهذا الشرطي المخبر ، وهو على طريق دمشق في مهمة لمطاردة المسيحيين ، وأوحى له بهذه المسيحية الجديدة . بذلك كان يحاجج كل من ينكر عليه شيئاً من افتراءاته بأن عيسى عليه السلام هو الذي أوحى بذلك ، وأن المسيحية الحق ليست ما أعلنها المسيح أو آمن بها حواريوه بل هي ما أُوحي إليه .

أما خلاصة ما زعم بولس بأنه تلقاه وحياً فدين وثني جديد لا صلة له بكل ما أُنزل على بني إسرائيل . إنه مزيج من الغنوصية والديانات الباطنية وشيء من تاريخ العبرانيين .

وسيكتشف قارىء الكتاب ذلك الصراع المر الذي كان يدور بين التيار اليهودي والتيار الروماني ، وذلك التنافس الشرس على ابتلاع ديانة السيد المسيح والتهامها . كانت مأساة السيد المسيح الحقيقية أنه وُلد في قومٍ أعظم مواهبهم تزوير التاريخ ، وأنه عاش في امبراطورية أشهر فضائلها القوة . ولقد ترك السيد المسيح رسالته وسيرة حياته

فريسة لتزوير اليهود وسلطة الرومان فلم يصل للناس من حياته ورسالته إلا ما زوره اليهود وأقره الرومان .

وكان بولس يجمع المجدين فهو يهودي روماني . وكان يعترف بأنه رجل حربائي يلبس لكل حال ما يناسبها ، فهو يهودي مع اليهود ، وروماني مع الرومان . وقد دلت سيرة حياته على أنه لاعب حبال من الطراز الأول وأنه بذلك استطاع ، كما يقول مؤلف الكتاب ، أن ينتصر على كل ما فعله المسيح على الأرض ، وأن يجعل من عقيدته ديناً رسمياً للأمبراطورية الرومانية .

وهذا الكتاب عن بولس واحد من أفضل وأحدث ما أصدره العالم المسيحي عن هذه الشخصية . وقد ألفه أستاذ تاريخ الأديان في معهد « ليوبايك » بلندن . وحرصاً على أن لا نؤذي مشاعر المسيحيين المؤمنين فإننا لم ننقل كامل الكتاب ، بل اختصرناه . أما الكتاب فإنه أكثر من ضعفي هذا المختصر ، وهو منشور بالإنكليزية والفرنسية لمن شاء .

كذلك فإننا نقلنا نصوص الإنجيل وأعمال الرسل ورسائلهم من الترجمة العربية للعهد الجديد المنشور في بيروت عام ١٩٦٦ . وتركناها كما هي بدون تعليق ، على رغم اختلافها في بعض الأحيان مع الترجمات الإنكليزية أو الفرنسية . كذلك فإننا أبقينا نص الكتاب ونصوص الأناجيل التي تتحدث أحياناً عن الصلب وألوهية عيسى عليه السلام وموته وغير ذلك مما يخالف عقائد المسلمين ، كما هي . فليست غايتنا تزوير النصوص بل عرض الحقائق ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ .

وبعـــد ، فهـذا هــو الكتـاب الثـالث من سلسلة « من أجــل الحقيقة » ، نرجو من الله أن يجعلها خـالصة لـوجهه وأن ينفـع بها ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مَسْألَة بولُس

هنالك شخصيتان أساسيتان لا بد من ذكرهما كلما أردنا الحديث عن أصول المسيحية : شخصية عيسى [عليه السلام] وشخصية بولس . إن المسيحيين يظنون أن عيسى هو الذي أسس ديانتهم ذلك لأن أحداث حياته هي التي أرست دعائم المسيحية ، لكنهم يعتبرون أن بولس هو المفسر الحقيقي لمهمة عيسى ، وأنه هو الذي فسّر ، بطريقة خاصة لم نجدها عند عيسى أبداً ، كيف أن حياة عيسى وموته ينتميان إلى نظام خلاص كوني يمتد من آدم (عليه السلام) إلى نهاية الزمان .

كيف نستطيع أن نتصور العلاقة بين عيسى وبولس ؟ إن علينا أن لا ننظر إلى ذلك بمنظار الإيمان بل نظرة تاريخية تتحقق من صحة الأناجيل وغيرها من الكتب التي يضمها العهد الجديد بين دفتيه . فلم تكن مهمة مؤلفي الأناجيل سرد الوقائع التاريخية كما هي ، ومن غير قسر ، بل كانت مهمتهم التبشير .

ولسوف نستعين في دراستنا بمصادر أخرى مثل مؤلفات « فلافيوس يوسيفوس » وأعمال مؤرخي الكنيسة والكتابات الغنوصية .

ماذا لو كان عيسى حياً أيام بولس ؟ ما عسى أن يكون رأيه فيه ؟ .

علينا أن لا ننسى أن عيسى لم يعرف بولس وإنهما لم يلتقيا . ثم إن أشد أتباع المسيح قرباً إليه مثل بطرس ويعقوب ويوحنا لم يصلنا منهم أي نص يسمح بمعرفة آرائهم في عيسى ويبين لنا فهمهم لرسالته . فهل كان هؤلاء الأتباع المقربون يوافقون على التأويلات التي نثرها بولس في كتاباته بطريقة فاقعة ، أم تراهم كانوا يعتقدون أن هذا الرجل الحديث التنصر يلفق نظريات معقدة عن عيسى ورسالته وأنه كان يخطىء في ذلك ويجانب الحقيقة ؟ .

كان بولس يزعم أن نظرياته ليست افتراء منه أو اجتهاداً شخصياً له بل إنها الوحي الذي أُنزل عليه . وكان يدعي أنه كان يرى عيسى بعد بعثه على الرغم من أنه لم يلتقِ به في حياته ولم يره البتة . وكان بولس يردد أن رؤاه الصوفية أهم من المعرفة الشخصية لعيسى [عليه السلام] أيام حياته الأرضية .

إننا نعرف بولس من رسائله ومن « أعمال الرسل » التي تقدم لنا سيرة وافية عن حياته . إن مؤلف « أعمال الرسل » هو لوقا الذي ترك لنا أيضاً إنجيلاً خاصاً باسمه ، وهو « انجيل لوقا » . وقد كان لوقا ، كما هو معلوم من أتباع بولس وأنصاره . ومع ذلك فإن لوقا يقول في « أعمال الرسل » أن ثمة خلافاً بين بولس وبين أتباع عيسى الذين ما زالوا أحياء يشرفون على « كنيسة القدس » . [وقد كان يعقوب العادل أخو المسيح عليه السلام واحداً منهم] . وتذكر بعض رسائل بولس نفسه ، خاصة تلك الرسائل إلى أهل غلاطية أن هذا الخلاف بينهم كان حاداً . ويبقى السؤال : ماذا لو كان عيسى ، أيام بولس ، حياً ؟

ما عسى أن يكون رأيه في بولس ؟ وما هو رأي الأتباع والحواريين الأوائل ؟ .

علينا أن لا ننسى أن « العهد الجديد » الذي نعرفه اليوم متأثر ببولس تأثراً أكبر مما يظهر للعيان ، على الرغم من أن الأناجيل لا تسلط أضواءها إلا على شخصية عيسى [عليه السلام] . إننا لا نعثر على بولس مباشرة إلا في رسائله . وهنا لا بد من الاشارة إلى مسألة تاريخية هامة ، وهي أن رسائل بولس في الواقع ليست إلا النصوص الأولى للعهد الجديد ما دام أنها كُتبت بين سنة ٥٠ و٦٠ للميلاد ، بينما لم تُكتب أناجيل « العهد الجديد » التي وصلت إلينا إلا بين ٧٠ و١١٠ للميلاد ، أي أن مؤلفي هذه الأناجيل تأثروا برسائل بولس التي كُتبت قبلهم وتشربوا بأفكاره وتأويلاته لأعمال عيسى [عليه السلام] . إن بولس حاضر ناظر في العهد الجديد منذ كلمته الأولى ، على الرغم من أن هذه الأناجيل تتحدث عن أمور وقضايا سبقت تأثير بولس . ولا شك في أن مفاهيم بولس ونظرته قد طغت على الأناجيل طغياناً دل على انتصار نظرته على كل ما فعله المسيح على الأرض ، وذلك في عقيدة الكنيسة بعد ذلك ، ولقد كانت هنالك تفسيرات مختلفة عن تفسيرات بولس ، وكانت متماشية مع المسيحية الأولى ، غير أن هذه التفسيرات والآراء أُزيلت واتهمت بالكفر عندما ثبتت الكنيسة البولسية لائحة الكتابات التي صارت تُعرف بعد ذلك بالعهد الجديد .

كل هذا يفسر لماذا عتّمت الأناجيل الأربعة على حواريي المسيح الإثني عشر ، ولماذا جعلتهم شخصيات غامضة باهتة خائرة محدودة الذكاء كأنهم لم يفهموا شيئاً من رسالة عيسى [عليه السلام] . لقد خفت أهمية هؤلاء الحواريين وطمس عليها . فعلى سبيل المثال يقول لنا

التاريخ أن يعقوب العادل أخا عيسى [عليه السلام] هو الذي تزعم « كنيسة القدس » بعد ارتفاع أخيه بينما تصوره لنا هذه الأناجيل غريباً عن رسالة أخيه جاهلاً لها ، بل إنها تصفه لنا وصفاً موجزاً يوحي بأنه كان شديد العداء لعيسى وأنه كان يظن فيه « الجنون » . فكيف تزعم يعقوب « كنيسة القدس » بعد موت أخيه مباشرة ؟ إن النصوص المعتمدة لا تساعدنا كثيراً على فهم هذه الشخصية . لقد رقعت الكنيسة هذه الثغرة بعد ذلك بأن اخترعت الأساطير والخرافات عن إيمان يعقوب وعن نزول الوحي عليه .

ولنعد إلى بولس . من هو بولس إذن ؟ للوهلة الأولى يبدو أن هنالك كثيراً من المعلومات عن هذه الشخصية ، غير أننا حين نتحقق منها ونفحصها تزيدنا اضطراباً وحيرة . إن لدينا معلومات عن بولس في الرسائل التي تركها لنا ، وهي معلومات تتسم بطابع السيرة الذاتية . ولدينا كتاب « أعمال الرسل » . غير أن المصدرين كليهما يدفعان بنا إلى الحيطة والحذر والتحفظ ، ذلك أن الأول سيرة ذاتية كتبها بولس نفسه ، أما الثاني فقد ألفه واحد من أتباعه وأنصاره ، وهنالك بعض المعلومات عن بولس في كتابات الأبيونيين [الفقراء من أتباع المسيح الأوائل الذين رفضوا أفكار بولس الخاصة بالطبيعة الإلَهية للمسيح وبالتثليث وعقيدة الفداء والخلاص] . إن كتابات هذه الطائفة الدينية تمدنا بكثير من المعلومات وتغني بحثنا هذا . وقد عثرنا لها على نص يهاجم بولس . كما أن هنالك مخطوطاً عربياً يحتوي على نص لأحد المسيحيين الأوائل يهاجم فيه بولس .

أما « أعمال الرسل » التي كتبها لوقا أحد أتباع بولس فيذكر لنا أن اسم بولس الأول هو « شاؤول » وأنه من مواليد طرسوس ، وهي

مدينة في آسيا الوسطى . والغريب أن بولس لا يذكر ذلك في رسائله أبداً ، بل إنه يقول فيها عن أصله : « أنا أيضاً إسرائيلي من نسل إبراهيم من سبط بنيامين » (رسالته إلى أهل رومية ١١ / ١) . ويبدو أن بولس لم يكن يرغب في أن يعرف قراء رسائله أن أصله من آسيا الصغرى وأنه من مدينة طرسوس البعيدة عن القدس . وتتجنب الكنيسة الخوض في أصل بولس وتتحاشاه ، فهي لا تريد أن تعترف بأنه زور سيرة حياته ولفقها .

وهنا لا بد من الحديث عن « الفريسيين » ، فقد كان بولس يزعم أنه كان فريسياً . وكان للفريسيين يومها سمعة حسنة داخل الأمبراطورية الرومانية لأنهم كانوا يدافعون عن المثل الدينية ويدعون إلى التسامح وتطبيق الشريعة بالحسنى والمعروف ، كما كانوا يناصرون الفقراء حين يظلمهم أهل الشر ، ولهذا فإن بولس لم يزعم بأنه كان فريسياً إلا لتلميع صورته وتحسين سمعته . يومها لم يكن لكلمة « الفريسي » دلالة سيئة أو معنى مشين ، كما جرى على ذلك المعنى في القرون الوسطى والعصور الحديثة .

ولنعد إلى سيرة بولس . يقول لوقا في « أعمال الرسل » أن بولس قد تعلم في أكاديمية القدس الفريسية على يد الحاخام غمالائيل . غير أن بولس لا يذكر شيئاً من ذلك في رسائله ، فهل تعلم بولس في القدس فعلاً ، وعلى يدي الحاخام المذكور أم أن لوقا اخترع ذلك ولفقه لتلميع صورة معلمه بولس ؟ كذلك يقول لوقا : « وأما شاؤول [اسم بولس اليهودي] فكان يسطو على الكنيسة ، وهو يدخل البيوت ويجر رجالاً ونساء ويسلمهم إلى السجن » (أعمال الرسل ٨ / ٣) . ولا شك في أنه لم يفعل ذلك بوازع من نفسه أو لحسابه الخاص ، لأنه

ليس هنـاك إلا السلطة الـرسميـة القـادرة عـلى أن تـزج النـاس في السجن . وقد كان شـاؤول يعمل لحسـاب سلطة « الراهب الأكـبر » الذي كان يُلاحق المسيحيين آنذاك ، كما كان شاؤول يعمـل بحمايتـه وبـإذن منه .ولكي نفهم الأخطاء المتراكمة في الأناجيل حول شخصية بولس فإن علينا أن نذكر شيئاً عن وضع المنطقة سياسياً ودينياً في تلك الفترة . فالراهب الأكبر لم يكن فريسياً بل كان صدوقياً . والصدوقية طائفة معادية للفريسيين عداء مراً. وإذن فكيف كان بولس فريسياً كما يزعم لوقا ؟ وكيف كان يعمل لحساب الراهب الأكبر الصدوقي ؟ إن أقل ما يمكننا قوله هو أن العهد الجديد يقدم لنا صورة متنـاقضة عن بـولس في الأيام التي سبقت اعتنـاقه للمسيحيـة . وهنـالـك كثـير من الإشارات على أن بولس كان يعمل لحساب الراهب الصدوقي .

ويمضي لوقا في « أعمال الرسل » فيصف اعتناق بـولس للمسيحية وكيف شاهد عيسى في رؤياه على طريق الشام، لكن أعمال الرسل تعود مرتين لتذكر لنا شيئاً عن حياة شاؤول [بولس] قبل مسيحيته . وفي الأصحاح الثاني والعشرين يستشهد لوقا برسالة لشـاؤول الذي صـار اسمه بولس بعـد اعتناقـه المسيحية يقـول فيها شيئـاً عن حياتـه قبل اعتناقه المسيحيـة : « إنني رجل يهـودي وُلدت في طـرسوس كيليكيـه ولكني رُبيت في هـذه المدينـة مؤدباً عنـد رجلي عـمالائيـل عـلى تحقيق الناموس الأبوي » (أعمال الرسل ٢٢ /٢) . وبولس هنا يعترف بأن أصله من آسيا الصغرى ، لكنه يصر على أنـه نشأ في القـدس وتعلم فيها ، أي أنه أمضى فيها أيام طفـولته . فهـل نستطيـع أن نفهم من ذلك أن والديه هاجرا من آسيا الصغرى واستقرا في القـدس أم أنهما أرسـلاه إلى القدس وحيـداً . وهذا أمـر غـير معقـول ؟ إن المصـادر

التاريخية تؤكد أن بولس لم يرحل إلى القدس إلا راشداً ، وإنه ترك والديه في طرسوس . ولا شك في أنه لم يكن يستطيع أن يتلقى دروسه الدينية عند عمالائيل إلا وهو في عمر متقدم، لأن عمالائيل لم يكن يقبل الأطفال في صفوفه .

وهناك مسألة أخرى تعنينا هنا ، وهي مواطنية بولس الرومانية . إن بولس يعلن أنه وُلد مواطناً رومانياً ، وهذا ما يقتضي أن يكون أبوه مواطناً رومانياً . وإن مثل هذا التصريح يثير عدداً من المسائل التي تطعن في فريسية بولس المزعومة .

وهنالك إشارات أخرى إلى حياة بولس قبل اعتناقه المسيحية في الإصحاح السادس والعشرين من أعمال الرسل ، وذلك في حديثه إلى الملك اغريباس :

« فسيرتي منذ حداثتي التي من البداءة كانت بين أُمتي في أورشليم يعرفها اليهود . عالمين بي من الأول إن أرادوا أن يشهدوا أني حسب مذهب عبادتنا الأضيق عشت فريسياً . والآن أنا واقف أُحاكم على رجاء الوعد الذي صار من الله لآبائنا . . فمن أجل هذا الرجاء أنا أُحاكم من اليهود أيها الملك اغريباس . لماذا يعد عندكم أمر لا يصدق أن أقام الله أمواتاً فأنا ارتأيت في نفسي أنه ينبغي أن أصنع أموراً كثيرة مضادة لاسم يسوع الناصري ، وفعلت ذلك أيضاً في أورشليم فحبست في السجون كثيراً من القديسين آخذاً السلطان من رئيس الكهنة . ولما كانوا يقتلون ألقيت قرعة بذلك . وفي كل المجامع كنتُ أُعاقبهم مراراً كثيرة وأضطرهم إلى التجديف . وإذ أفرط حنقي عليهم كنت أطاردهم [« أطاردهم » في الفرنسية] إلى المدن التي في الخارج » .

« ولما كنت ذاهباً في ذلك إلى دمشق بسلطان ووصية من رؤساء الكهنة . . »(أعمال الرسل ٢٦ /٤ ـ ١٣) .

وواضح أن هذا الخطاب لم يكن من عمل بولس ولم يكن بولس هو الذي قاله للملك الروماني بل إنه خطاب حرره لوقا مؤلف « أعمال الرسل » على طريقة كتّاب العصر الروماني القديم . ولهذا فإننا لا نستطيع أن نصدق أن سيرة بولس يعرفها اليهود . ومن المفيد هنا أن نلاحظ أن بولس يقول إنه أخذ السلطان من الكهنة لملاحقة وسجن أتباع عيسى [عليه السلام] مشتركاً بذلك في قتلهم . إن هذا يشير ضمنياً إلى السنهدرين أو المجلس الذي كان يجتمع لإصدار الأحكام .

هل يريد لوقا أن يقول لنا أن بولس ، بطله ، كان في مرحلة ما عضواً في « السنهدرين » ؟ إن هذ غير معقول ، ولو أنه صح لذكره بولس في رسائله حين قال عن نفسه إنه فريسي . إن كتاب لوقا « أعمال الرسل » يناقض بعضه بعضاً حين يشير إلى مطاردة أتباع عيسى وحوارييه من قبل الراهب الأكبر ومجلس « السنهدرين » . إن الكتاب يذكر مثلاً أن الفريسيين ناهضوا أحكام الراهب الأكبر وعارضوا تعذيب أتباع المسيح . هنا أيضاً يبدو كتاب لوقا وكأنه يناقض بعضه بعضاً ، فكيف يطارد بولس أتباع المسيح إذا كان فريسياً ؟ ألم يناهض الفريسيون ملاحقة أتباع المسيح ، وعارضوا محاكمة بطرس ، وطالبوا بالعفو عنه ؟ أي فريسي كان بولس ليتصرف بطريقة لا توافق الفريسيين ولا تنسجم مع مواقفهم ؟ أليس عجيباً أن يناقض هذا الكتاب « أعمال الرسل » نفسه فيزعم أن بولس كان عدواً للمسيحية إنطلاقاً من قناعاته الفريسية ثم يذهب إلى القول أن الفريسيين كانوا يوادون المسيحيين الأوائل بل كانوا يدافعون عنهم وينقذون حياتهم ؟ .

لماذا أراد بولس أن يُسلط الأضواء على أصوله الفريسية ؟ هنالك سبب جوهري لذلك وهو أن بولس يلح في سيرته الذاتية على أنه ليس بدعاً ، وعلى أن مسيحيته التي جاء بها ليست إلا إستمراراً لليهودية وتتمة لها . كان اسم الفريسي يُطلق على اليهودي ، وكان بولس يريد أن يقول إنه حين كان فريسياً كان يرى أن المسيحيين قد خرجوا عن الجادة فأثموا وكفروا (باليهودية) ، وأنه حين اعتنق المسيحية آمن بأنها هي اليهودية الحق . لقد أراد بولس أن يلح على أن كل تربيته الفريسية وكل دراساته للكتاب المقدس هي التي أوصلته إلى الإيمان بأن عيسى [عليه السلام] هو المسيح الذي أشار إليه أنبياء العهد القديم . وهكذا فإن بولس حين يشدد على فريسيته كل هذا التشديد ويؤكد عليها كل هذا التأكيد فإنه لا يعترف بأخطائه وحسب: « أنظروا كم تغيرت حين صرتُ من أتباع المسيح بعد أن كنتُ أُعذب تلامذته » بل يتكبر : « لقد اكتملت التوراة بيسوع ، فمن ينكر عليَّ ذلك أنا الفقيه المتعمق » .

ولأول وهلة تبدو عقيدة بولس الخاصة بعيسى [عليه السلام] تحريفاً جريئاً لليهودية . غير أن بولس كان يدافع عن عقيدة تضرب جذورها العميقة في الأساطير الوثنية ، ولا علاقة لها باليهودية . إنها عقيدة عيسى الإلّه الشخص الذي نزل من السماوات ليُقتل ويفدي بذلك الإنسانية ويخلصها . ولم يرد بولس أن يرى اليهود أن عقيدته جديدة ، ولهذا فقد كان يزعم بأن كل سطر من الكتاب المقدس كان يبشر بمجيىء المسيح ، وأن الذين يعارضون مسيحه هم أولئك الذين لم يحسنوا قراءة التوراة .

وكان هنالك من قَبِلَ بعقيدة بولس ، لكنه اعتبرها عقيدة جديدة

الأصل والفروع . وكـان مرسيـون [غنوصي من أتبـاع بولس وأسس كنيســة تُعـرف بـاسمـه] من أكـثر المتحمسـين لآراء بــولس ومن مستلهميها . وقد عـاش مرسيـون (في روما) بعـد بولس بقـرنٍ من الزمان ، وكان ينكر كل تأثير يهودي في عقيدة بولس ويؤمن بأنها عقيدة جيدة . بل كان يذهب إلى أن الكتابات اليهودية ـ ما خلا التوراة ـ من عمل الشيطان .

ومن المؤكد أن بولس لن يتفق معه على الرغم من أنه كان يرى أن في العهـد القديم بعض الكتب البـالية وأن هـذه الكتب قـد نُسخت بمجيء عيسى . كان يصر على أنه ، وهو الفريسي ، يؤلف الرمز الحي لالتقاء الناموس القديم بالناموس الجديد ، وأنه يجسد نقطة العبور من اليهودية إلى المسيحية .

وقد حاول عدد من مفسري المسيحية وشارحيها في القرون الخالية أن يـدرسوا زعم بـولس بأنـه فـريسي ، أي يهـودي بـالمعنى الـواقعي للكلمـة . وكان عـدد من الـرهبـان المسيحيـين في القرون الوسطى يتوسلون ذلك لتنصير اليهود . كذلك كان هؤلاء المفسرون والشارحون يؤكدون على أن كتابات الحاخامات من تلمود ومردوخ كانت تؤكد على أن عيسى هو المسيح المنتظر وأنه ذو طبيعة إلَهية ، وأنه مات من أجل تخليص الإنسانية . وعلى الرغم من أن هؤلاء المفسرين لم يجيئـوا على اسم بولس ، فإن بولس لم يكن ليعارض ما ذهبوا إليه لو كان حياً . كذلك حاول المفسرون والشارحون المحدثون أن يبرهنوا على أن عقائد بـولس الخاصـة بعيسى [عليه السـلام] وعذابـاته الإلَهيـة ليست إلا استمـراراً لليهوديـة ومتابعـة لهـا كـما تـدل عـلى ذلـك التـوراة وكتب الحاخامات بل حتى تلك الأناجيل السرية التي ترفضها الكنيسة .

إن ادعاء بولس وزعمه بأنه فريسي عليّ ينتمي إلى تيار يهودي متميز يدفعنا إلى السؤال الجوهري وهو : هل كانت المسيحية التي اخترعها بولس استمراراً فعلياً لليهودية أم أنها دين جديد يستمد أصوله التاريخية من الأساطير الوثنية لتلك الآلهة التي تموت وتبعث ، ومن الأساطير الغنوصية التي تتحدث عن مخلص نزل من السماء ؟ هل كان بولس فعلاً ذا تراث يهودي أم أنه كان في الأساس ذا ثقافة هيلينية يونانية دينية ؟ هل كان يريد أن يضفي ظاهراً دينياً على ما يناقض اليهودية تماماً .

عَن تصَـوّريُ ..

يريد هذا الكتاب أن يقدم تصوراً جديداً مغايراً تماماً للصورة التقليدية المعروفة لبولس ، كما رسمتها في الفصل السابق . ولكني لا أُريد لها أن تضيىء كثيراً من الموضوعات المفيدة الأخرى ، ومنها :

من كان الفريسيون ؟ وبماذا اضطلعوا ؟ كيف اختلفت أفكارهم الدينية والسياسية عن أفكار الصدوقيين وغيرهم من الطوائف الدينية والسياسية في تلك الفترة ؟ كيف كان موقفهم من عيسى [عليه السلام] ؟ وماذا كان موقفهم أيضاً من أول كنيسة تأسست في القدس ؟ .

من كان عيسى [عليه السلام] وما رسالته ؟ هل كان يعتبر نفسه مخلصاً نزل من السماء من أجل أن يُصلب أم أن أهدافه كانت مغايرة تماماً ؟ هل كانت شخصية عيسى التاريخية مغايرة للشخصية التي وصفها لنا بولس انطلاقاً من رؤياه ؟ .

كيف كانت كنيسة القدس الأولى ؟ ومن كان أول أتباع المسيح الذين انتسبوا إليها ؟ هل كانت هذه الكنيسة تعكس ما يعتقدونه بأمانة ؟ هل كان يعقوب [أخو عيسى عليه السلام] وبطرس اللذان يُعتبران أول زعمائها يشاطران آراء بولس كما تزعم ذلك الكنيسة أم

كانا يعاديانه ويعتبرانه كافراً ملحداً برسالة عيسى ؟ .

من هم الأبيونيون الذين رفضت الكنيسة الرسمية آراءهم وكتاباتهم ولماذا كانوا يدينون بولس ؟ لماذا كانوا يعتقدون أن الإيمان بالمسيح هو شعبة من شعب إيمانهم بديانتهم ؟ لماذا كانوا يعتقدون أن عيسى [عليه السلام] هو المسيح ولكنهم برغم ذلك ينفون عنه أية طبيعة إلٓهية ؟ هل كانوا فرقة دينية يهودية أم أنهم كانوا - كما يقولون - أتباع المسيح عن حق وأتباع كنيسة يعقوب [أخي المسيح] وبطرس ؟

والحجج في هذا الكتاب ليست بسيطة لأن موضوعاته مترابطة ومسائله متشابكة . ومن المستحيل أن نُجيب عن سؤال من غير أن نتطرق إلى الأسئلة الأخرى. ولهذا فربما كان من المفيد أن أعجّل بتقديم الخطوط العريضة لنظريتي . على أنني لا أُريد أن أستبق النتائج . وقد يبدو الملخص التالي قاطعاً إذ أقدمه منذ الآن ، لكنه لا يهدف إلا أن يكون دليلاً بين يدي القارىء من أجل أن يمسك بيده ويمضي على طريق الحجج المتشعبة . وهذه هي أهم النقاط :

١ - لم يكن بولس حاخاماً فريسياً على الإطلاق ، بل كان مغامراً من أصل غير واضح . وكان في خدمة الصدوقيين يُمارس مهمات أمنية بوليسية لخدمة الراهب الأكبر ، وذلك قبل اعتناقه المسيحية . كذلك لم يكن يعرف تعاليم الفريسيين معرفة جيدة. ولقد شوه بولس سيرة حياته عمداً ليزيد نشاطه التبشيري فعالية .

٢ - كان عيسى [عليه السلام] وحواريوه من الفريسيين . ولم يسع إلى تأسيس دين جديد (على الديانات اليهودية) ولم ينو ذلك . لقد كان يعتبر نفسه المسيح . . . ولم يكن رجل حرب ، فلم يبنِ جيشاً

لمحاربة الرومان لأنه كان يظن أن الله سوف يؤيده على جبل الزيتون بمعجزة كبرى تذهب بعظمة روما كما جاء في كتاب زكريا . . . ولم يكن في نية السيد المسيح أن يُصلب ليخلص الإنسانيـة من لعنتها الأبدية ، ولم يعتبر نفسه أبداً كائنـاً إلَهياً . ولـو أنه علم بمـا قالـه النـاس عنه بعـد موتـه لاعتبر ذلـك وثنية وخـرقاً لأول وصيـة من وصاياه .

٣ ـ لقد أسس يعقوب [أخو المسيح] وبـطرس ، وهما من حـواريي عيسى [عليه السلام] ، كنيسة القدس بعد موتـه . وأُطلق عليهما اسم « النـاصريـين » . ولم تكن معتقـداتهـما تختلف عن عقـائـد الفريسيين سوى أنهما كانا يؤمنان ببعث عيسى ويعتقدان أنه المسيح المنتظر . ولم يكن أتباع كنيسة القـدس يؤمنون بأن عيسى ابن الله أو أنه كائن إلهي ، ولكنهم كانوا يعتقدون بأنه بُعث بعد موته بمعجزة أيده الله بها ، وأنه سوف يعـود ليستكمل رسـالته ويقهـر الرومـان ويؤسس المملكة المسيحية . وكانوا يؤمنون بأنه لم ينسخ ما جاء به الأنبياء اليهود ولم يبطل التوراة . وبمـا أنهم صحبوا السيـد المسيح فقـد كانـوا يعرفـون أنه طبق الشريعـة . . . ولقد أظهـروا تحفـظاً شديداً على بولس حين علموا بـأنه يبشر بـدين جديـد ، وحاولـوا التحاور معه في البداية ، ولكنهم لم يلبثـوا أن تولـوا عنه وانتبـذوه وأنكروه .

٤ ـ إن بولس ، لا عيسى [عليه السلام] ، مؤسس هذه المسيحية . إن الأسطورة الأساسية في هذا الدين الجديد تقول بموت كائن إلَهي للتكفير عن خطايا البشر ، وإن الخلاص الوحيد هـو الإيمان بهـذه التضحية والتوحد الديني بها . ولقد استقى بولس بعض ذلك من

المصادر الهيلينية وافترى هذا الدين ، كما خلط ذلك بما استوحاه من الغنوصية والأديان الباطنية ، ولا سيما من عبادة « أتيس » . إن صهر هذه العناصر المهرطقة بعناصر يهودية ، ومزجها بكتابات يهودية أُعيد تأويلها وتقديسها أدى إلى ابتداع خليط فريد . وقد كان بولس وحده وراء ذلك ، ولم يكن يخطر على بال عيسى [عليه السلام] أن ذلك ممكن. ولا شك في أنه كان سيصدم ويذهل بشخصية « الإله المعذب » التي ألبسه إياها بولس . ولم يكن بين الناصريين واحد يقول ما قاله بولس على الرغم من أن بعض المؤرخين المعاصرين للقديسين حاولوا أن ينسبوا مثل هذه الأفكار إلى اتيان ، وقالوا ان هنالك من سبق بولس إلى ذلك . غير أننا نصر على أنّ بولس هو الذي اخترع هذه الأسطورة المسيحية . إن التبجيل الذي لاقاه بولس على مدى العصور عتم على جوانب أخرى في شخصيته . إننا نجد لديه مزيجاً من النية الطيبة ومن الشعوذة . وقد كان هنالك عدد من مثل هذه النماذج في العصر اليوناني / الروماني مثل سيمون الساحر وأبوللو التياني .

٥ ـ هنالك مصادر غنية بالمعلومات عن بولس نجدها في كتابات طائفة الأبيونيين ، لكن هذه المصادر لم تستوفِ حقها . وقد أخفت الكنيسة كتاباتهم غير أننا لم نعثر على تصوراتهم وتعبداتهم فيما كتبه أعداؤهم ، خاصة ذلك المجلد الكبير الذي كتبه أبيبفان بعنوان «الهرطقات ». وفي هذا الكتاب نرى الأبيونيين يضيئون شخصية بولس بطريقة مغايرة لما نجده في العهد الجديد ويقدمون لنا معلومات مختلفة عما نراه في رسائل بولس . كان الأبيونيون يشهدون على أن بولس لم يكن فريسياً أبداً، وأنه لم يتلق تعليمهم على

الإطلاق . كذلك فقد شهدوا على أنه لم يولد يهودياً ، بل اعتنق اليهودية وهو في طرسوس ، ثم جاء إلى القدس بالغاً راشداً فدخل في خدمة الراهب الأكبر . غير أن آماله في أن يصير شهيراً ذهبت مع الريح ولم تتحقق في خدمة الراهب الأكبر فراح يسعى إلى تأسيس دين جديد . وشهادة الأبيونيين صحيحة في معظمها .

٦ ـ وكانت الكنيسة قد اتهمت الأبيونيين بالهرطقة لأنهم لم يعترفوا بأن عيسى ابن الله . ولقد رفض الأبيونيون الإيمان بعقيدة الكنيسة كما أرساها بولس ، وظلوا يطبقون الشريعة ويعتبرون رسالة عيسى [عليه السلام] استمراراً لنبوات بني اسرائيل . ولم يكن الأبيونيون هراطقة ، كما زعمت الكنيسة ، كما لم يكونوا يهوداً جدداً كما يقول المفسرون المعاصرون . إنهم الأتباع المصدقون لعيسى [عليه السلام] ، وأنصاره الحقيقيون الذين مضوا في نشر رسالته كما أراد لها هو أن تنتشر . كانوا يعتقدون ما يعتقده النصارى من أتباع الكنيسة التي أسسها يعقوب [أخو المسيح] وبطرس . وكلاهما رافق المسيح طوال حياته ، وكانا على علم به ومعرفة بمقاصده على نقيض بولس الذي لم ير عيسى [عليه السلام] إلا في الرؤيا . لهذا فإن ما قاله الأبيونيون عن بولس جدير بالعناية والتأمل وخليق بأن لا نخفيه باعتباره « إساءة » كما فعل الباحثون المسيحيون وما زالوا يفعلون .

ولنعد الآن إلى سؤالنا الأساسي : هل كان بولس فريسياً ؟ .

والمسألة هنا ليست مسألة سيرة ذاتية أو فضول هامشي . إنها مرتبطة بالمسألة العامة لأصل المسيحية ، فإذا صح أن بولس لم يكن فريسياً متجذراً بالتقاليد والتعاليم اليهودية ، وثبت أنه كان مغامراً

هيلينياً لم يعرف اليهودية إلا في فترة متأخرة وبشكلٍ سطحي فإن هذا يعني أن علينا أن ننظر إلى اللاهوت الذي أسسه في رسائله نظرة مختلفة . ولطالما كان موقف المسيحية من بولس الفريسي ومن الفريسيين متناقضاً جداً ، فنحن نرى أن الأناجيل مثلاً تصف الفريسيين بالنفاق والقتل ، ثم إن هذه الأناجيل نفسها تعود لتوحي لنا بأنهم كانوا أشخاصاً ثقاة معتبرين . وهذه الثنائية واضحة في موقف المسيحية من مجمل الديانة اليهودية ، إنها مرة تتهمها بالطقسية المتخلفة ، ومرة تدعو إلى احترامها وتبجيلها كما تدعو إلى اعتبار التاريخ اليهودي مقدساً ومصدراً للبركة والسلطة . بل أن الكنيسة تصر على أنها هي اليهودية الجديدة . لقد كان المؤرخ الفرنسي رينان يرى في القرن التاسع عشر أن المسيح إنسان ثوري رومنطيقي ثار على السلطة الفريسية اليهودية ، بينما يتحدث عن بولس ويصفه بالفريسية ويقول عنه أنه طمس على براءة عيسى [عليه السلام] وغيّبها في ضباب من اللاهوت والتعابير المعقدة . كذلك نجد المؤرخين المسيحيين في القرن العشرين يؤكدون على أن بولس لم يتخل عن فريسيته ، وإن ذلك عنصر إيجابي يردم الهوة القائمة بين المسيحية واليهودية . أن يكون المرء يهودياً أو لا يكون : تلك هي المسألة الأساسية للمسيحية ، وإن شخصية بولس التي تزعم الانتماء إلى الفريسيين بشكلٍ أو بآخر ثم تنكر الانتماء إلى الفريسيين تشكل رمزاً لما تحدثنا عنه .

بولس على طريق دمَشِق

باستطاعتنا الآن تحليل ذلك الحدث الجلل الكبير الذي كان وراء ولادة هذا الدين المسيحي ، وأعني بـه اعتناق بـولس للمسيحية عـلى طـريق دمشق . إن هذا الحـدث هـو الـذي حـول [المسيحيـة] من استمرار للديانات اليهودية الأصيلة إلى دينٍ مختلف جديد ذي لاهوتٍ خاص وأساطير خاصة لا علاقة لها بالأصل . ولا شك في أن ذلك لم يـظهر دفعـة واحدة ، حتى في ذهن بـولس ، لكن مرحلة دمشق هي البذرة التي بسقت منها كل التطورات اللاحقة .

وكان بولس (الذي كان يدعى حتى لحظة رؤياه على طريق دمشق شـاؤول) قد سلك طـريق دمشق في مهمة يصفهـا هـو نفسـه بهـذه العبارات في أعمال الرسل :

« أما شاول فكان لم يزل ينفث تهديداً وقتلاً على تلاميذ الرب . فتقـدم إلى رئيس الكهنة (الـذي كان يتعـامل مـع السلطة ويُـلاحق المسيحيين) وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات ، حتى إذا وجد أُنـاساً من الـطريق رجالاً أو نسـاء [مؤمنين] يسـوقهم مـوثقـين إلى أورشليم » . (أعمال الرسل ٩ /٢) .

وفي هذه الرواية مشكلات عدة ، أولها أن سلطة رئيس الكهنة في أورشليم لا تشمل مثل هذه المجامع [التي أراد بولس أن يذهب إليها] . وكانت سلطاته الرسمية لا تتجاوز حدود معبد القدس . ثم إن المجامع اليهودية المشيدة للتعليم والصلوات في الأماكن التي يوجد فيها اليهود داخل القدس وخارجها لم تكن ملة واحدة تتعبد على طريقة معبد القدس ، بل كانت مجامع مستقلة . ولم يكن كهنة هذه المجامع يزعمون لأنفسهم مهمة طليعية مماثلة لمهمة الكاهن الأكبر في معبد القدس . كذلك لم يكن يحق لكبير الكهنة [في القدس] أن يأمرهم أو ينهاهم أو يبعث إليهم رسلاً كشاوول ليسوقوا الناس الذين لا تروق لهم مواقفهم موثقين إلى أورشليم .

أما في منطقة فلسطين فكان الكاهن الأكبر قادراً على مثل ذلك ، لا لأن الدين يعطيه ذلك الحق ، بل بكل بساطة ، « لأن سلطات الإحتلال الرومانية هي التي أولته ذلك . وكان للكاهن الأكبر شرطته التي يستخدمها كيف يشاء ، لأهداف ليست روحية بالضرورة . كان بإمكانه أن يطلب من شرطته توقيف أعضاء حركة القدس وزجهم في السجون ، وذلك في حدود يهودا فقط . [حركة القدس هي الجماعة المسيحية المؤمنة التي تجمعت تحت زعامة يعقوب أخي عيسى عليه السلام وزعامة بطرس] . وكان الكاهن الأكبر يوقفهم ، لا لأنه ينكر لاهوتهم ، وإنما لأنهم كانوا يشكلون ، في اعتقاده ، خطراً على روما .

وإذن فلم يكن الكاهن الأكبر يستطيع أن يتسلط على الذين خارج حدود يهودا . ولهذا فإن من المستحيل على مؤرخ الأديان أن يفهم كيف يمكن لهذا الكاهن الأكبر أن يزود شاوول برسائل تسمح له

بمطاردة أتباع المسيح وتوقيفهم [خارج حدود سلطته] . ويصعب على المؤرخ أن يفهم مهمة شاوول حين يعلم أن دمشق في تلك الفترة لم تكن تحت سلطة الرومان ، وأن الأمبراطور الروماني كاليغولا تخلى عنها في عام ٣٧ للميلاد . ومن المعروف أن دمشق تاريخياً كانت في تلك الفترة جزءاً من مملكة الأنباط العربية التي كانت للملك الحارث . ولم يكن هذا الملك يساوم على سلطته أبداً ، ولم يكن ليسمح لموفد مثل شاوول أن يدخل أراضيه بسهولة ، ويطارد رعاياه ، أو يطارد جاليات تعيش في ظل حمايته ، لا سيما وأن هذا الموفد قادم من يهودا التي يحتلها أعداؤه الرومان .

لهذا فإن علينا أن نعيد النظر في تفاصيل وفادة بولس إلى دمشق :
إن من المستحيل على بولس أن يحصل على رسائل من الكاهن الأكبر تخوله مطاردة المسيحيين المؤمنين في دمشق لسبب منطقي أساسي ، وهو أن هؤلاء المؤمنين هربوا إلى دمشق ليكونوا في مأمن من سطوة الرومان وسلطة الكاهن الأكبر . ربما أوكلت إلى شاوول [بولس] مهمة سرية هدفها الإمساك ببعض زعماء الناصريين وسوقهم إلى يهودا لتسليمهم إلى الرومان أو إلى أعواد المشانق . وكان بعض المسيحيين قد سلكوا طريق المقاومة السرية للإحتلال الروماني واختار بعضهم المنفى . كذلك كان بعضهم ينشط في الخفاء داخل يهودا ، ومن المعقول أنهم كانوا يتلقون العون والنصح من إخوانهم في دمشق .

ماذا جرى إذن ؟ لقد أوفد شاوول [بولس] وهو المساعد العسكري للكاهن الأكبر في مهمة لخطف بعض المسيحيين المتمردين على سلطة الكاهن الأكبر ، وكانت معه عصابة من القتلة المأجورين . لكنه لم يكن يحمل رسائل رسمية من الكاهن الأكبر كما يزعم .

ونجد أصداء لهذا الحدث في الأدب المسيحي المتأخر . ففي كتاب « استكشافات » لكاتب يدعى كليمنت ، وهو عمل يروي كثيراً من أحداث تلك الفترة نجد أن شاوول [بولس] قد توجه إلى دمشق وفي نيته أن يوقف بطرس نفسه الذي اختبأ هناك بعد أن كان يعقوب [أخو عيسى عليه السلام] قد تعرض لمحاولة اغتيال . وفي هذا نقض لما جاء في « أعمال الرسل » حيث يذكر مؤلفه أن حياة أبرز حواريي المسيح كانت في أمان . غير أن أعمال الرسل أغفلت جانباً من حدث تاريخي أصيل وهو أن أبرز أعضاء ما يُسمى بعصبة حنانيا كانوا في الشام ، وكان بولس وقتلته المأجورون يطاردونهم .

ونجد تأكيداً مهماً لهذا في كتابات بولس نفسه ، ففي رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس (الإصحاح ١١ /٣٢ ـ ٣٣) : « في دمشق والي الحارث الملك كان يحرس مدينة الدمشقيين يريد أن يمسكني فتدليت من طاقة في زنبيل من السور ونجوت » .

وهذه الأسطر تشير إلى المرحلة اللاحقة لدخول بولس إلى دمشق بعد أن جعلته رؤيا المسيح أعمى وشفاه الكاهن حنانيا ، وبعد أن صار من أتباع المسيح .

غير أننا نجد تناقضاً فاضحاً لهذه الرواية في « أعمال الرسل » : « أما شاوول فكان يزداد قوة ويحير اليهود الساكنين في دمشق محققاً أن هذا هو المسيح . ولما تمت أيام كثيرة تشاور اليهود ليقتلوه ، فعلم شاوول بمكيدتهم وكانوا يراقبون الأبواب أيضاً نهاراً وليلاً ليقتلوه . فأخذه التلاميذ ليلاً وأنزلوه من السور مدلين إياه في سل » (إصحاح ٩ / ٢٢ ـ ٢٥) .

ورواية بولس أقرب إلى الواقع . وكان بولس قد كتب رسائله بين عامي ٥٥ و٦٠ ميلادية تقريباً ، بينما لم تُكتب أعمال الرسل إلا عام ٩٠ . يقول بولس أنه اضطر إلى الهرب من الشام خلسة عندما كان رئيس شرطة الملك الحارث يحاول أن يمسك به ، بينما تقول أعمال الرسل أن حياة بولس كانت مهددة من قبل يهود دمشق الذين أنكروا عليه قوله أن عيسى [عليه السلام] هو المسيح المنتظر .

وهذا التناقض هام فنحن نجد في « أعمال الرسل » دائماً تحويلاً للأحداث السياسية إلى رواية دينية . فإذا كان رئيس شرطة الملك الحارث هو الذي يريد الإمساك ببولس ، وليس اليهود ، فإن هذا يعني أن بولس قد ارتكب جنحة سياسية معينة . وقد حاول بعض مفسري « أعمال الرسل » تبرير هذا التناقض بقولهم : إن رئيس الحرس كان يفعل ذلك باسم اليهود . ولكن ليس هناك عذر جدي يبرر لرئيس شرطة الملك النبطي في دمشق أن يهتم بالخلافات الدينية بين الرعايا اليهود في دمشق . لكن الأرجح ، والأقرب إلى المنطق أن رئيس الشرطة النبطية اكتشف أن عميل الكاهن الأكبر لمعبد القدس موجود في دمشق سراً وفي مهمة تتنافى مع السيادة النبطية . ولا شك في أن هذه الحادثة لم تكن الأولى ، فقد كانت دمشق يومها ملاذاً لكثيرٍ من المنشقين السياسيين الفارين من البلاد التي احتلها الرومان . ولم يكن رئيس الشرطة ليصدق أن بولس قد أقلع عن المهمة التي يقوم بها لحساب كبير الكهنة ، وأنه صار من أتباع عيسى [عليه السلام] . كان رئيس الشرطة يظن أن هذا الإيمان [المفاجىء] تغطية للمهمة السرية . ولهذا فقد بادر إلى ملاحقته عندما علم بوجوده ، واضطر بولس إلى مغادرة دمشق بسرعة فاراً من مخالب الشرطة النبطية .

أما المعارضة المزعومة التي لقيهـا بولس من يهـود دمشق فإننـا لا نفهم لماذا يثور اليهود عليه . فإذا كان ذلك لأنه كان يقول أن عيسى هو المسيح المنتظر فإن كثيراً من يهود دمشق كانوا يؤمنون بذلك . ولم يكن بولس في تلك الفترة قد أعلن عن أفكاره الجديدة الكافرة ولم يقل بألوهية عيسى ونسخ التوراة . ومن هنا فـإن يهود دمشق ، إذا عـرفوا بـولس ، لن يـروا فيـه أكـثر من مؤمن آخـر من المؤمنـين بعيسى [عليه السلام] . وكان يهود دمشق يرحبون بهؤلاء لأنهم ينشطون ضد الاحتلال الروماني للقدس . ومن المؤكد أنهم لم يشاطروا الكاهن الأكبر في تـواطئه [مـع الرومـان] وهم الذين لجـأوا إلى دمشق أصـلاً لأنها تخلصت من سلطة الرومان .

غير أن أعمال الرسل حولت مهمة بولس من طبيعتها السياسية إلى طبيعة دينية . وبالتالي فقد تحول يهـود دمشق ، بعد أن التقى بـولس بعيسى [عليه السلام بعد ارتفاعه إلى السماء ، وفي الـرؤيا المفـاجئة] إلى يهود ظالمين متعصبين .

ولنعـد إلى تجربـة بولسْ عـلى طريق دمشق ، تلك التجـربة التي غيرت حياته وحياة العالم الغربي . هنالك ثلاث روايات لهـذا الحدث في « أعمال الرسل » وحدها : في الإصحاح التاسع ، والإصحاح الثاني والعشرين ، والســادس والعشرين . ولا تخلو هـذه الــروايــات من تناقضات . وهنالك رواية رابعة ذكرها بولس في الاصحاح الأول من رسالته إلى أهل غلاطية ، وهي رواية تمدنا بتناقضات جديدة .

ولنبدأ بالاصحاح التاسع :

« وفي ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق ، فبغتة أبرق حوله نور

من السماء فسقط على الأرض ، وسمع صوتاً قائلاً له شاول شاول لماذا تضطهدني ، فقال : من أنت يا سيد . فقال الرب : أنا يسوع الذي أنت تضطهده . صعب عليك أن ترفس مناخس . فقال وهو مرتعد ومتحير : يا رب ماذا تريد أن أفعل . فقال له الرب : قم وادخل المدينة فيُقال لك ماذا ينبغي أن تفعل . وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً . فنهض شاول عن الأرض وكان وهو مفتوح العينين لا يبصر أحداً ، فاقتادوه بيده وأدخلوه إلى دمشق . وكان ثلاثة أيام لا يبصِر فلم يأكل ولم يشرب » . (٣ ـ ٩) .

ونجد في هذه الرواية أن بولس سمع صوتاً يكلمه ، وأن الرجال المسافرين معه سمعوا الصوت أيضاً .

وفي الرواية الثانية من الاصحاح الثاني والعشرين يرى المسافرون مع بولس النور لكنهم لا يسمعون الصوت :

« فحدث لي وأنا ذاهب ومتقرب إلى دمشق أنه نحو نصف النهار بغتة أبرق حولي من السماء نور عظيم ، فسقطت على الأرض وسمعت صوتاً قائلاً لي : شاول شاول لماذا تضطهدني ؟ فأجبت : من أنت يا سيد ؟ فقال لي : أنا يسوع الناصري الذي أنت تضطهده . والذين كانوا معي نظروا النور وارتعبوا ولكنهم لم يسمعوا الصوت الذي كلمني . فقلت : ماذا أفعل يا رب ؟ فقال لي الرب : قم واذهب إلى دمشق وهناك يُقال لك عن جميع ما ترتب لك أن تفعل . وإذ كنت لا أبصر من أجل بهاء ذلك النور اقتادني بيدي الذين كانوا معي فجئت إلى دمشق » (٦ ـ ١١) .

وفي الرواية الثالثة الواردة في الاصحاح السادس والعشرين نجد أن خطاب عيسى [عليه السلام] أطول مما في الروايتين السابقتين . وهنا يكلمه « الرب » بالعبرية وهذا غير وارد في تلك الروايتين ، ويعلن أنه انتخبه خادماً وشاهداً . وهذه إضافة جديدة :

« ولما كنت ذاهباً في ذلك إلى دمشق بسلطان ووصية من رؤساء الكهنة رأيت في نصف النهار في الطريق أيها الملك نوراً من السماء أفضل من لمعان الشمس قد أبرق حولي وحول الذاهبين معي . فلما سقطنا جميعنا على الأرض سمعت صوتاً يكلمني ويقول بالعبرانية : شاول شاول لماذا تضطهدني ؟ صعب عليك أن ترفس مناخس . فقلت أنا : من أنت يا سيد ؟ فقال : أنا يسوع الذي أنت تضطهده . ولكن قم وقف على رجليك لأني لهذا ظهرت لأنتخبك خادماً وشاهداً بما رأيت وبما سأظهر لك به منقذاً إياك من الشعب ومن الأمم الذين أنا أرسلك إليهم لتفتح عيونهم كي يرجعوا من ظلمات إلى نور ومن سلطان الشيطان إلى الله حتى ينالوا بالإيمان بي غفران الخطايا ونصيباً مع المقدسين » .

وهنالك تناقضات أخرى[1]، ففي الإصحاح التاسع مثلاً نجد أن حنانيا رجل مسيحي : « وكان في دمشق تلميذ اسمه حنانيا » ، بينما

(١) من التناقضات التي أغفلها المؤلف أن لفظة الرب تختفي في الرواية الأخيرة ويُستعاض عنها بلفظة السيد . ثم إن عيسى عليه السلام لم ينتخب بولس خادماً وشاهداً في الرواية الأخيرة وحسب ، بل إنه « عينه » رسولاً إلى الإسرائيليين (الشعب) وإلى الأمم (باقي الشعوب) . كذلك فإن الرواية الأخيرة لا تذكر أنه أُصيب بالعمى بل إنها توحي بأنه قام ومشى فوراً إمتثالاً للأمر : « قم وقف » . ومن غير المعقول أن يطلب إليه ذلك ويدعه أعمى .

نجده في الاصحاح الثاني والعشرين يهودياً تقياً : « ثم إن حنانيا رجلاً تقياً حسب الناموس ومشهوداً له من جميع اليهود » وإذا صح أن حنانيا يهودي فلماذا يدعو بولس إلى العماد ؟ إن اليهود لم يكونوا يفعلون ذلك : « والآن لماذا تتوانى . قم واعتمد وغسل خطاياك داعياً باسم الرب » .

أليس عجيباً أن يمتلىء نص مثل « أعمال الرسل » بكل هذه التناقضات علماً بأن كاتبه واحد ؟ .

إنها شخصية بولس تلك التي تراكم وراءها التناقضات المتتابعة والأخطاء المتواصلة . فنحن نجده في رسالته إلى أهل رومية يخترع لنفسه شجرة نسب غريبة عجيبة : « فأقول : ألعل الله رفض شعبه . حاشا لأني أنا أيضاً إسرائيلي من نسل ابراهيم من سبط بنيامين » (الاصحاح الحادي عشر /١) .

أما في رسالته إلى أهل فيلبي فيقول : « من جهة الختان مختون في اليوم الثامن من جنس اسرائيل من سبط بنيامين عبراني من العبرانيين » (الاصحاح ٣ / ٥) .

ولم يعرف بولس أنه دخل في مغامرة حين زعم أنه من سبط بنيامين، فبالرغم من أن بعض قبيلة بنيامين ظل حياً في فلسطين بعد نفي القبائل اليهودية العشر أيام شلمنصر الآشوري فإن من بقي من هذه القبيلة تزوج من قبيلة يهوذا وفقدوا هويتهم الخاصة فصاروا جميعاً يدعون « أهل يهودا » . لم تبق هناك إلا قبيلة واحدة معروفة بهويتها الخاصة وهي قبيلة اللاويين ، وهي مؤلفة أساساً من الكهنة . وقد اضطرت إلى الحفاظ على هويتها المميزة لأسبابٍ دينية . ولذلك فإن

التمييز بين يهودا وبنيامين أيام بـولس لم يكن له معنى بـل كان نسيـاً منسيـاً ، لكن سكان رومـا واليونـان الذين كـان بولس يتـوجه إليهم بتبشيره أساساً لم يكونوا على علم بهذه التفاصيل الخاصة باليهود .

تلك هي تناقضات بولس على طـريق دمشق وخلال تبشـيره بين الرومان واليـونان . لقـد كان طمـوح بولس كبـيراً . اعتنق اليهوديـة وطمح إلى أن يكون حاخاماً شهيراً ، لكنه لم يفلح في ذلك بـرغم ما أظهره من كياسة وخطابة وخيال في رسائله . وحين أدرك أنه لن يقدر على أن يكون بـاحثاً انقـطع عن الدرس ، وقبـل بأول عمـل عُرض عليه . وبدلاً من منصب الكاهن المحترم الذي كان يحلم به صار مجرد شرطي بين يدي الكاهن الأكبر لمعبد القدس . وفي مثـل هذه الحـال نزل عليه الوحي . . وحي عيسى [عليه السلام] .

بولس وَالقربَان المقَدّس

استناداً إلى العقيدة المسيحية [السائدة] نستطيع أن نزعم بأن عيسى [عليه السلام] هو الذي جاء بفكرة « القربان المقدس » ، وأن هذا دليل قوي على أن بولس لم يكن هو الذي أوّل موت عيسى [عليه السلام] هذا التأويل المنسجم مع الطقوس السرية .

والقربان المقدس يعني إتحاد المؤمن مع « الألوهة » ، وذلك بأكل جسد المسيح وشرب دمه . ومثل هذا الطقس يعني تأليه عيسى [عليه السلام] . ومن المستحيل أن يتفق هذا التأليه مع الرأي القائل بأن عيسى كان المسيح الذي كان ينتظره اليهود . إن القربان المقدس لا يعني الإشتراك في الألوهة وحسب بل يعني أيضاً مبدأ «التضحية» بعيسى [عليه السلام] لافتداء الإنسانية . إن المسيحي يشترك في جسد المسيح المفتدى كما كان اليهود يأكلون لحم الخروف في الفصح (كما شبه المسيح بذلك في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس : « لأن فصحنا أيضاً المسيح قد ذبح لأجلنا » ٥/٧) . ومثل هذا المفهوم لموت عيسى [عليه السلام] لا ينسجم مع التراث النبوي اليهودي لأنه يعيد الإعتبار للتضحية بالبشر التي اعتبرتها تلك النبوات فظاعة . والواقع

أننا نجد جزءاً كبيراً من التوراة يندد بالتضحية [التي كانت متبعة في الأديان الوثنية] ، وأعني التضحية البشرية . كانت التوراة تعتبر التضحية بالحيوان هي البديل الكامل والإلغاء التام للتضحية بالبشر . وهذا معروف في قصة ابراهيم وإسماعيل [عليهما السلام] .

إن القربان المقدس يعني أن الخلاص هو موت المسيح وسفك دمه . وفي ذلك انحراف جذري عن النبوات القديمة وعودة إلى المفاهيم الوثنية . وإذا صح أن عيسى [عليه السلام] هو الذي جاء بفكرة القربان المقدس فهذا يعني أنه هو الذي أسس [هذه] المسيحية ، وليس بولس . ولا بد من الإشارة هنا إلى أن القربان المقدس يفصل المسيحية نهائياً عن النبوات العبرانية لأنه يُعتبر عاملاً مقدساً أساسياً فيها .

وفي الأناجيل نصوص كثيرة معروفة تعرض علينا عيسى [عليه السلام] وهو يؤسس القربان . وأول نص نجده في إنجيل مرقس : « وفيما هم يأكلون أخذ يسوع خبزاً وبارك وكسر وأعطاهم . وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي . ثم أخذ الكأس وشكر وأعطاهم فشربوا منها كلهم . وقال لهم هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يُسفك من أجل كثيرين » (مرقس ١ /٢٢ ـ ٢٤) . ونعثر على هذا النص تقريباً في إنجيلي متى ولوقا .

وتُعتبر هذه الرواية جزءاً من تاريخ « العشاء المقدس » . لكن من الغريب فعلاً أن لا نجد ذكراً لهذه الحادثة في رواية يوحنا للعشاء المقدس . فيوحنا يعيد فكرة القربان المقدس إلى مرحلة صعبة جداً من حياة عيسى أثناء تبشيره في كفرناحوم : « فخاصم اليهود بعضهم بعضاً

قائلين :كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل ؟ فقال لهم يسوع : الحق الحق أقول لكم ، إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيه . من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير لأن جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق . من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه . كما أرسلني الآب الحي وأنا حي بالآب فمن يأكلني فهو يحيا بي » (يوحنا ٦ / ٥٣ ـ ٥٨) .

ونحن نجد في الأناجيل المتفقة في نصوصها [مرقس ومتى ولوقا] كيف أن عيسى [عليه السلام] يحتفل بطقسه ، فيوزع الخبز والنبيذ على أتباعه ، ولكننا نجده هنا يؤسس طقساً ويطلب من أتباعه أن يتعبدوا به إلى أبد الدهر . وللقارىء أن يفهم ما يشاء من هذه الرواية ، وله أن يعتبرها مصدراً تاريخياً وسبباً للقربان المقدس الذي يُمارس اليوم في الكنيسة المسيحية . له ذلك أما الرواية فإنها لا تظهر عيسى [عليه السلام] محتفلاً بالطقس بل تطلق على لسانه بعض الأفكار الغامضة . وقد تركه بعض أتباعه بسبب هذه الأفكار كما جاء في يوحنا (٦ /٦٦ : « ومن هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء ولم يعودوا يمشون معه » .

من أين تأكد المسيحيون أن عيسى [عليه السلام] هو الذي أسس القربان المقدس وجعله سراً حقيقياً من أسرار الكنيسة ؟ إن أول تصريح مباشر عن ذلك ورد في رسائل بولس الذي يُعتبر فعلاً المرجع الأول لفكرة القربان المقدس ، فهو يعبر مباشرة عن أن في جسد المسيح ودمه طاقة للخلاص ، كما جاء في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس : « لأنني تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضاً . إن الرب يسوع في الليلة التي أسلم فيها أخذ خبزاً وشكر فكسر وقال خذوا كلوا

هذا هو جسدي المكسور لأجلكم اصنعوا هذا لذكري . كذلك الكأس أيضاً بعد ما تعشوا قائلاً: هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي . اصنعوا هذا كلما شربتم لذكري فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء . إذاً أي من أكل هذا الخبز أو شرب كأس الرب بدون استحقاق يكون مجرماً في جسد الرب ودمه . ولكن ليمتحن الإنسان نفسه وهكذا يأكل من الخبز ، ويشرب من الكأس ، لأن الذي يأكل ويشرب بدون استحقاق يأكل ويشرب دينونة لنفسه غير مميز جسد الرب » (الاصحاح ١١ / ٢٣ - ٣٠) .

وهذا النص يدل بوضوح على أن بولس هو الذي افترى القربان المقدس وهو الذي أرساه تصوراً أساسياً في الكنيسة وعنصراً لا بد منه . ويقول بولس من غير لبس أن القربان المقدس يصدر عن الوحي الذي أُنزل عليه : « لأنني تسلمت من الرب ما سلمتكم » .

وعلّق الدارسون المسيحيون على كلام بولس هذا وركزوا على مسألة تلقيه ذلك من « الرب » بوحي تنزل عليه مباشرة من عيسى [عليه السلام] ، علماً بأنه يزعم أن هذا كان « رأي المسيح » . ولقد أفاض الدارسون المسيحيون في ذلك إفاضة تلفت النظر . وهذا ما يمكن فهمه فقد كان الرهان كبيراً ، فالقول بأن بولس هو الذي افترى القربان المقدس يعني أنه هو الذي أسس [هذه] المسيحية لا عيسى [عليه السلام] ، أي أن السر الجوهري للمسيحية ، وهو ما يميزها عن الديانات السماوية لم يأتِ به عيسى ، وأن اشتراك المؤمن في جسد المسيح الديني وذلك بالتهام الإله لم يقل به [عليه السلام] . ولو أنه علم بذلك عندما كان حياً لاعتبره مفهوماً مقرفاً مقززاً ، على الرغم

من أنه ربما سمع عن مثل هذه الطقوس في الديانات الوثنية والباطنية المعروفة في تلك الأيام .

ولا بد لنا هنا من الاعتراف بأن بولس يصرح بأنه علم بالكلام الذي قاله عيسى [عليه السلام] في العشاء الأخير من الوحي مباشرة ، وأنه لم يستقِ ذلك من أتباع عيسى وحوارييه الذين كان بعضهم حاضراً .

إن الدراسة التاريخية لأول كنيسة مسيحية ، وهي كنيسة القدس ، تقول أنها لم تُمارس « القربان المقدس » . ولو صح أن عيسى [عليه السلام] هو الذي أسس القربان فلماذا لم تمارسه الكنيسة الأولى وعلى رأسها أتباع المسيح الذين حضروا العشاء الأخير؟ هل تجاهلوا آخر ما قاله عيسى فاضطر بولس إلى تذكيرهم به بعد أن نزل عليه الوحي ؟ صحيح أن الأناجيل كلها تقول أن عيسى هو الذي أسس القربان ، وأن هذا السر المسيحي صادر عن أقوال عيسى وأفعاله في العشاء الأخير ، ولكن يجب علينا أن نتذكر مرة أخرى أن هذه الأناجيل كُتبت بعد رسائل بولس ، وكانت متأثرة بأفكاره . لكن الأناجيل ليست مستمدة من بولس بالتمام والكمال ، ولا سيما حياة عيسى الدنيوية التي لم تكن تعني شيئاً كثيراً لبولس .

وعلى الرغم من أن الأناجيل التي تتفق في نصوصها تجاري رواية بولس بأمانة فإنها لا تذهب إلى ما ذهب إليه وتنسب تأسيس القربان المقدس إلى عيسى [عليه السلام] . إنها تكتفي بأن ترينا عيسى محتفلاً بما صار بعد ذلك يُعرف بالقربان المقدس . وكان كتبة هذه الأناجيل المتفقة في نصوصها محرجين إن لم يكن لديهم مصدر آخر لقصة القربان المقدس غير [رسائل] بولس ، لدرجة أنهم استشهدوا بنصف روايته

« الرؤياوية » للعشاء الأخير .

أما إنجيل يوحنا فيبدو مُختلفاً ، إذ نجده عارفاً بأن فكرة القربان تشكل صدمة قوية للرأي العام اليهودي ، ولهذا يذكر لنا كيف أن أتباع عيسى [عليه السلام] صدموا بما قال، وأن بعضهم ارتاع ورجع إلى الوراء ولم يعد يمشي معه . وهذه الصدمة التي يصفها يوحنا ليست هي التي أحس بها اليهود الذين كانوا يستمعون إلى عيسى [عليه السلام] ، لأن عيسى ، بكل بساطة ، لم يقل بالقربان المقدس ولم يتحدث عنه ، بل كانت صدمة أحس بها الذين استمعوا إلى بولس حين ألصق بالمسيحية طقساً مغالياً في الوثنية لدرجة أنه يشرك البشر في الألوهة على طريقة أكلة اللحوم البشرية .

وهذا لا يعني أن عيسى [عليه السلام] لم يوزع الخبز والنبيذ على تلامذته في العشاء الأخير . لقد كان ذلك طبيعياً ، وكانت تلك عادة اليهود حين يأكلون في الأيام العادية والأعياد ، وما زالت عادتهم إلى اليوم فينهض كبيرهم على المائدة فيحمد الله [وهذا الحمد هو المعنى الأصلي لما سُمي بالقربان المقدس] ، ثم يكسر الخبز ويعطي قطعة منه لكل مدعو . وفي نهاية المأدبة يحمد الله مرة ثانية ويمسك كبير القوم (أو المدعو) كأس النبيذ فتنتقل من واحدٍ إلى آخر . كذلك ما زالت هذه العادة تُمارس إلى الآن عند اليهود ولا تحمل أي معاني غامضة . إنها بكل بساطة شكل من أشكال الشكر لله . أما أن يتحول الخبز إلى جسد والنبيذ إلى دم فهذا من افتراء بولس الذي حول وجبة الطعام اليهودية العادية إلى طقس وثني . وبما أن فكرة شرب الدم محرم لدى اليهود فإن القول بأن النبيذ دم كانت فكرة مقززة للمستمعين اليهود ، ومن غير المعقول أن تكون قد صدرت عن تلك البيئة .

ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن عبارة بولس « عشاء الرب » وهي العبارة التي يستعملها للقربان المقدس كانت شائعة جداً في الديانات الباطنية يومها وكانت تُستعمل للمآدب المقدسة التي ترفع للإلّه المخلص . وكانت الكنيسة في بداياتها تعتبر هذا العشاء سراً وتحيطه بجو من السرية . ولم تسمح لغير المسيحيين مشاهدة هذا الطقس . غير أن عبارة « عشاء الرب » أحرجت آباء الكنيسة الأوائل وأزعجتهم كثيراً مما اضطرهم إلى تغييرها واستخدام عبارة أخرى هي « القربان المقدس » التي هي أقرب إلى اليهودية . ومع ذلك فقد ظل هذا القربان المقدس برغم التغيير اللفظي ينطوي على دلالات سحرية ، فقد كان هؤلاء يؤمنون بأن ثمة معجزة تقع كل مرة يحتفلون فيها بالقربان المقدس ، وأن الخبز والخمر يتحولان إلى جسد المسيح . وكانت هذه الدلالة السحرية موجودة منذ أن أسس بولس هذا الطقس ، كما يتضح لنا ذلك في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس : « ولكن ليمتحن الإنسان نفسه هكذا يأكل من الخبز ويشرب من الكأس . لأن الذي يأكل ويشرب بدون استحقاق يأكل ويشرب دينونة لنفسه غير مميز جسد الرب » (٦ / ٢٨ ـ ٢٩) .

لم يرغب بولس في قطع الجسور بين دينه الجديد وبين اليهودية . وعلى الرغم من أنه صبغ « قربانه المقدس » بصبغة الوحي المنزل فإنه لم يقل إنه هو الذي أسس هذا السر ، بل ينسبه إلى عيسى [عليه السلام] . وقد وافق بولس بعد ذلك على الجهود التي بُذلت في أعمال الرسل لإيهام الناس بأن دور بولس كان هامشياً وأن كل هذه الأفكار صدرت عن عيسى [عليه السلام] . لم يرد بولس أن يظهر بمظهر المؤسس لدين جديد ، بل أراد عكس ذلك . أراد أن تكون أفكاره

ونظرياته تتمة منطقية لليهودية . وأن تستفيد بالتـالي من كل التـاريخ الذي تتحدث عنه الكتابـات اليهوديـة . لهذا يحـاول أن يضيف لمسة توراتية على آرائه بما فيها القربان المقـدس نفسه . إنـه يربط القـربان المقدس وأكل جسد المسيح وشرب دمه بالتضحيات التي يقدمها اليهود في المعبـد . وقد جـاء في رسالتـه الأولى إلى أهل كـورنثوس قـولـه : « أنظروا إسرائيل حسب الجسـد . أليس الذين يـأكلون الذبـائح هم شركـاء المـذبـح » (١٠ /١٨) بـل إنـه يـزعم أن شرب دم عيسى [عليـه السلام] ممـاثل لمـا شربه اليهـود في الصحراء قـائـلاً في تلك الرسالة : « وجميعهم [الأجداد اليهـود] شربوا شرابـاً واحداً روحيـاً لأنهم كـانوا يشربـون من صخرة روحيـة تابعتهم ، والصخـرة كانت المسيح » (١ كورنثوس ١٠ / ٤) . هكذا أراد بولس أن يربط أفكاره الوثنية الجريئة بضباب من الإيحاءات المستمدة من تاريخ اليهود .

ويبقى أن نبرهن على أن هـذا الطقس لم يُمـارس من قبل أتباع عيسى [عليه السلام] في كنيسة القدس التي كان يتزعمهـا حواريـوه والذين يعرفون يقيناً ما إذا كان عيسى [عليه السلام] هو الذي أسس هذا الطقس .

لقد سبق للمؤرخ هانس ليبـتزمان أن بـرهن على ذلـك وذكر أن شهادة « أعمال الرسل » تدل على أن القربان المقدس لم يكن معروفـاً بين طقوس النصارى في القدس . كـان هنالـك شعور بقـوة الجماعـة يـظهر أثنـاء المآدب المشـتركة كـما هو الحـال في عـدد من الجـماعـات اليهودية . إننا نقرأ في أعمال الرسـل : « وكانـوا يواظبـون على تعليم الرسل والشركة وكسر الخبز والصلوات . وصار خوف في كل نفس . وكانت عجائب وآيات كثيرة تجري على أيدي الرسل . وجميع الـذين

آمنوا كانوا معاً وكان عندهم كل شيء مشتركاً . والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج . وكانوا كل يوم يواظبون في الهيكل بنفس واحدة . وإذا هم يكسرون الخبز في البيوت كانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب » (أعمال الرسل ٢ /٤٢ ـ ٤٦) . وأحب هنا أن أكرر بأن « كسر الخبز » وتوزيعه على الحاضرين لم يكن يتضمن معنى احتفالياً طقسياً لدى اليهود . وليس هنالك دليل يدفعنا إلى القول بأن الخبز كان يحمل معنى رمزياً أو صوفياً .

إننا لا نجد لدى أتباع كنيسة القدس أية إشارة إلى أكل جسد عيسى [عليه السلام] أو شرب دمه . وإننا لنتساءل لماذا لم يغامر لوقا (مؤلف أعمال الرسل) ويتحدث عن القربان المقدس في الأعمال . كان لوقا على علم بطقس القربان المقدس بعد أن صار هذا السر الكنسي طقساً مؤسساً من طقوس الكنيسة (حوالي ٩٠ م) . إنها غفلة لوقا . وإنها لدليل على صعوبة كتابة التاريخ مجدداً دون أن يترك الكاتب أثراً يوحي بالتاريخ الأصيل .

إن بولس هو الذي أسس القربان المقدس ، وأضاف عليه زعمه بأنه « رأى » المسيح في العشاء الأخير يعطي التعليمات والتفصيلات لهذا الطقس السري . ولقد أُضيفت « رؤيا » بولس بعد ذلك إلى الأناجيل فاعتبرتها الأغلبية الساحقة من مؤرخي العهد الجديد حقيقة واقعة . أما تلامذة عيسى [عليه السلام] الذين أسسوا كنيسة القدس فإنهم أبداً لم يُمارسوا هذا الطقس المقزز .

كنيسة القدس

إن الدراسة التاريخية لما سُمي بكنيسة القدس والقراءة المتمعنة لأعمال الرسل (٢/٤٦) تدلان على أن أتباع عيسى [عليه السلام] لم يؤسسوا بعد موته مباشرة مركزاً دينياً مناظراً للمعبد اليهودي في القدس ، بل ظلوا يترددون على المعبد ويحترمون التوراة . وصحيح أنه صار لأتباع عيسى [عليه السلام] تنظيم خاص لكن زعماء هذا التنظيم ،وهو حواريو المسيح ، لم يكونوا كهنة على غرار الكهنة اليهود . وأهم من ذلك أن تلامذة عيسى وحوارييه لم يؤسسوا في القدس أية رهبانية ، وأن الرهبانية المسيحية لم تنظم إلا بتأثير أفكار بولس . وكانت فعلاً رهبانية منافسة للكهنوت اليهودي . وكان أصحاب هذه الرهبانية قد أسسوا كهنوتاً استلهموا مظهره ومعناه من الديانة اليهودية ومن الديانات الوثنية . وبينما لم تكن اليهودية تسمح إلا بمكان إداري واحد لممارسة الطقوس أنشأت المسيحية كنائسها هنا وهناك لممارسة الطقوس السرية .

وظل أتباع عيسى [عليه السلام] يترددون على المعبد ، ولم يعلن واحد منهم أنه يريد أن يؤسس كنيسة أو أن يكون راهباً . صحيح أنهم كانوا تجمعاً متميزاً [عن اليهود] ولكنهم لم يشكلوا كنيسة .

وظلوا دينياً جزءاً لا يتجزأ من اليهودية . لهذا فمن غير الصحيح تاريخياً أن نستعمل عبارة « كنيسة القدس » للحديث عن أتباع عيسى آنذاك .

وتعارض الكنيسة بالطبع هذه الحقيقة التاريخية وتقول أن عيسى [عليه السلام] نفسه أسس كنيسة . وإذا كان ذلك صحيحاً فلماذا تصرف حواريوه وأتباعه بعد موته كأنه لم تكن هنالك كنيسة ؟ وإذا صح أن عيسى [عليه السلام] ـ كما تقول الأناجيل ـ قد اختار بطرس رأساً لهذه الكنيسة فلمذا اختار الحواريون النصارى أخا المسيح « يعقوب » رأساً لها ولم يختاروا بطرس ؟ مع أن الأناجيل لا تعتبر « يعقوب » واحداً من أتباع المسيح . إنها إحدى التناقضات التي ترسم لنا صورة للتشويه الذي ألحق بتاريخ عيسى [عليه السلام] بعد وفاته . إننا هنا سنحاول أن نلقي ضوءاً على طبيعة الخلاف الذي نشب بين بولس وبين ما سُمي بكنيسة القدس . وقد جاء في إنجيل متى كيف انتخب بطرس رئيساً للكنيسة [من قبل عيسى عليه السلام مباشرة] قال : « قال لهم وأنتم من تقولون إني أنا . فأجاب سمعان بطرس وقال: أنت هو المسيح ابن الله الحي . فأجاب يسوع وقال له : طوبى لك يا سمعان بن يونا. إن لحماً ودماً لم يعلن لك لكن أبي الذي في السموات . وأنا أقول لك أيضاً أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها » (متى ١٦ / ١٥ ـ ١٩) .

ومن الغريب أن لا نجد هذه الرواية إلا في إنجيل متى فقط . ولقد ارتبطت هذه الرواية بأسطورة شاعت في القرن الثاني تقول أن بطرس مات في روما . إن موت بطرس في روما بالذات كان المقصود

منه أن تُمارس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية نفوذها على جميع المسيحيين . وقد زعمت هذه الأسطورة أن بطرس كان أول مطران في روما ، أو إذا قصدنا الدقة أول بابا . وبما أن المسيح هو الذي أعلن بأن بطرس هو الصخرة التي سيبني عليها كنيسته فإن روما صارت بالتالي قلب المسيحية وموطن التعاقب البابوي على سلطة الكنيسة التي أسسها المسيح بنفسه . وليس لكل ذلك ، طبعاً ، حقيقة أو أصل تاريخي . إنه لا ينتمي إلا لسياسة القوة . ولا شك في أن عيسى [عليه السلام] لا يستطيع أن يتخيل أن مركز تعاليمه انتقل إلى روما ، عاصمة السلطة العسكرية التي ناضل ضدها ، من غير أن يُصاب بالذهول والحيرة . أما نحن فإننا لا نستطيع أن نصف ذلك إلا بأنه تشويه للتاريخ والحقيقة .

وعوداً على الحقائق التاريخية . كيف كانت العلاقة بين بطرس الذي كان مشرفاً على تلامذة عيسى أيام حياته وبين يعقوب شقيق عيسى [عليه السلام] ؟ ولماذا لم يصبح بطرس زعيماً على الحركة بعد عيسى ؟ .

لكي نفهم ذلك ينبغي علينا أن نذكر بمن كان عيسى عليه السلام حقاً ؟ إنه لم يكن مؤسس كنيسة ، ولكنه كان مسيحاً بالمعنى العبراني الدقيق لكلمة المسيح . وحين يستعمل بطرس كلمة « المسيح » فإنه يستعملها بمعناها الأصيل ، لا بالمعنى الذي أضافته الكنيسة عليه لاحقاً . كان جواب عيسى [عليه السلام على الحوار السابق المنقول عن إنجيل متى] أنه سوف يعطيه « مفاتيح ملكوت السموات » . ومعنى هذا في سياقه الأصيل مغاير للمعنى الذي اخترعته الأساطير المسيحية حين رسمت القديس بطرس واقفاً أمام باب السموات ممسكاً

بالمفاتيح يقرر أي الأرواح يدخل وأيها يخرج . إن المقصود بملكوت السموات هو مملكة الله ذلك لأن كلمة السموات تعني بالعبرية صفة من صفات الله . .

ولا شك في أن تزعم يعقوب [أخي عيسى عليه السلام] يدل على أمر بالغ الأهمية إذا وضعنا كل شيء في سياقه وبيئته اليهودية . إن اليهود الذين آمنوا بعيسى [عليه السلام] كانوا يعتبرونه مسيحاً [ومن معانيه ملك اليهود المنتظر] . ولهذا فقد خلفه أخوه يعقوب . وهذا لا يعني أن يعقوب قد صار ملكاً ، خاصة وأن أتباع عيسى [عليه السلام] كانوا يؤمنون بأنه لم يمت وأنه قد ارتفع بمعجزة . كان يعقوب مجرد مشرف على أمور المؤمنين في انتظار عودته [عليه السلام] . كذلك فإنه بعد أن نفذ حكم الإعدام بيعقوب على يد الكاهن الأكبر الصدوقي (حوالي عام ٦٢) خلفه رجل آخر من أسرته هو ابن عمه شمعون وأشرف على « كنيسة القدس » . وكان الرومان ينظرون إلى الأمور بهذا المنظار فقد وزعوا منشورات للقبض على ذرية داود . ولم يسلم شمعون فأوقف وأعدمه الرومان بتهمة المطالبة بعرش داود .

ولا يمكن فهم موقف بطرس إلا بذلك ، فهو لا يستطيع أن يكون زعيماً على الحركة ما دام من ذرية مختلفة . ومع ذلك فقد كان مستشاراً ليعقوب ، وكان يتمتع بسلطة قوية إذ كان حوارياً ومشرفاً على التلامذة .

إن « أعمال الرسل » تدلنا على كثيرٍ من التشويه والتحريف اللذين أُلحقا بالمسيحية ، فالاصحاح الثاني من هذه الأعمال يروي لنا حادثة غريبة حصلت يوم عيد العنصرة اليهودي (كان الاصحاح الأول قد

تحـدث عن بعث عيسى عليه السـلام وظهوره للحـواريين) . يقـول الاصحـاح الثاني أن الحـواريين الإثني عشر تلقـوا الـوحي [الـترجمـة العربية للإنجيل : امتلأ الجميع بالروح القدس] « وابتدأوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا » . وصار بغتة من السماء صـوت كما من هبـوب ريح عـاصفـة وملأ كـل البيت حيث كـانـوا جالسين ، وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم . (وظن اليهود أنهم مخمورون) . فوقف بطرس مع الأحد عشر ورفع صوته وقال : « يسوع هذا أقـامه الله ونحن جميعـاً شهود لذلك » ثم ذكرهم بما قاله داود في مزاميره متنبئاً بحفيد له يجلس على عرشه : (إنه من ثمره وصلبه يقيم المسيح حسب الجسد ليجلس على كرسيه) . ويقول النص أيضاً أن اليهود لما سمعوا ذلك « نخسـوا في قلوبهم وقالوا لبطرس ولسائر الرسل: ماذا نصنع أيها الرجال الأخوة ؟ فقال لهم بطرس: توبوا وليعتمد [من العماد] كل واحد منكم » .

واعتبر المسيحيون عدداً من القرون هذه الحادثة تأسيسـاً للديانـة المسيحية ، وقارنوها بـاليهوديـة ، فعيد العنصرة يُعتـبر تأسيسـاً للدين اليهودي ، عند الحركة الحاخامية ، ذلك أن تسليم التوراة على طـور سينـاء تم في ذلك اليـوم . وأراد المؤرخون أن يـدللوا على أن طقس التعميد يعني اعتناق الدين الجديد أو أنه يحل محل الختان لدى اليهود .

وقد كانت هذه نظـرة مؤلف « أعمال الرسل » إلى الأشياء . لكن هذه « الأعمال » ممتلئة بالتنـاقض كما ذكـرنا . إن العقيـدة التي ميزت المسيحية التي تطورت بتأثير بولس غير موجودة في « أعمال الرسل » فلا يوصف فيها عيسى [عليـه السلام] بـأنه شخصيـة إلَهية بـل « رجل رسول من الله » . (لا يظهر ذلك في الـترجمة العـربية) . ولم يتخـذ

بعث عيسى هنا دليلاً على ألوهيته بأن ذلك معجزة أيده الله بها . أما وصف « ابن الله » فلم يرد فيها أبداً . .

إن معتقدات حركة القدس تلقي ضوءاً مميزاً على أفكار عيسى [عليه السلام] نفسه . فإذا كان يعقوب أخو المسيح والحواريون الذين اتبعوا المسيح [عليه السلام] لم يسمعوا بالعقيدة التي ابتدعها بولس كتأليه عيسى ، ونسخ التوراة ، ولم يعرفوا الطقوس الجديدة كالقربان المقدس والتعميد (بمعناه الكنسي) فإن أبسط قوانين المنطق تقول إن عيسى [عليه السلام] لم يسمع ولم يعرف ذلك . وعلى كل حال فإننا لا نستطيع أن ننسب هذه المسيحية إلى عيسى [عليه السلام] ، ولا بد لنا من أن نبحث عمن افترى ذلك عليه في مكان آخر .

إن الإعتقاد السائد يرى أن عيسى [عليه السلام] قد أسس هذه المسيحية بنفسه ، على الرغم من أن هنالك من حاول البرهنة على عبثية ذلك [البحث عن الأصول] وإن المسيحية قد قامت على ما وراء بعث المسيح ، أي على مسيح أسطوري اخترعه بولس . ويرى المسيحي والباحث المسيحي العادي أن هذه فذلكة . إنهما معاً يشعران أن عبادة المسيح جاءت من عيسى عليه السلام ولم تكن وهماً . . .

ما هو الأرجح : أن لا يفهم حواريو عيسى [عليه السلام] وأتباعه رسالته وتعاليمه ، أم أن الأناجيل حرفت الحقائق وحورتها ؟ إن الذين كتبوا هذه الأناجيل بعد موت المسيح [عليه السلام] بخمسين سنة على أقل تقدير ضمنوها تشنيعاً بالحواريين وقدحاً . فهم لم يستسيغوا مواقف « كنيسة القدس » وأرادوا معارضة تأثيرها على الكنيسة .إن رواية مرقص لما جرى بين بطرس وعيسى[عليه السلام]

تريد أن تقول إن بطرس لم يفهم المسيح ، وتدلل على مأزق المسيحية المتأثرة ببولس . وتقول الرواية : « فأخذه بطرس إليه وابتدأ ينتهره . فالتفت وأبصر تلاميذه فانتهـر بطرس قـائلاً : اذهب عني يـا شيطان لأنك لا تهتم بما لله لكن بمـا للناس » . إن المسيحيـة المتأثـرة ببولس أرادت برواية هـذه المشادة إعـطاء صورة عن عيسى [عليـه السلام] كـذبها الثقـاة المؤتمنون وهم زعـماء حـركـة القـدس حـواريـو المسيـح وأتباعه . . .

القطيعة

رأينا كيف أن المسيحية القائمة على أن « خلاص البشرية يتم بموت المسيح » ، وعلى التعميد والقربان المقدس ليست هي المسيحية التي عرفها الحواريون فيما يُسمى بكنيسة القدس ، وأن مؤسس هذا الدين الجديد المتميز هو بولس الذي ألّه عيسى [عليه السلام] وزعم أن الوحي قد نزل عليه [على طريق دمشق] . ونحن في هذا الفصل والفصل الذي يليه سنكشف عما كان بين بولس ونصارى القدس من شقاق .

وكنا ذكرنا أن كتاب « أعمال الرسل » يريد التخفيف من حدة النزاع بين بولس وزعماء « كنيسة القدس » يعقوب وبطرس . بل إن المسيحية اللاحقة تصف لنا بولس وبطرس متحدين في إيمان واحد علماً بأنهما كانا في عداء مرير وكانا على خلاف ديني كبير . إن كاتب « أعمال الرسل » [لوقا] محنك خبيث ، فهو لا يريد أن يوحي بأن بولس هو الذي اخترع هذه المسيحية ، بل يريد أن يقنعنا بالأصل المعتبر ، وأن كنيسة بولس ليست إلا استمراراً لكنيسة القدس . وبالرغم من كل تفانيه فإنه ليس صعباً علينا أن نكشف الحقيقة بالدراسة المتأنية للعهد الجديد ، وبالكشف عما فيه من تناقضات وتشويش .

أول إشارة إلى الشقاق بين الطرفين نجده في مطلع الإصحاح ١٥ من أعمال الرسل : « وانحدر قوم من اليهودية وجعلوا يعلمون الأخوة أنه إن لم تختتنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا . فلما حصل لبولس وبرنابا منازعة ومباحثة ليست بقليلة معهم رتبوا أن يصعد بولس وبرنابا وأُناس آخرون منهم إلى الرسل والمشايخ إلى أورشليم من أجل هذه المسئلة » (أصحاح ١٥ / ١ ـ ٢) .

وتوجه بولس وبرنابا إلى القدس حيث استقبلهم أعضاء كنيستها والرسل والمشايخ . وهنا وقعت بينهم المشادة والخلاف : (وقام أناس من الذين كانوا آمنوا من مذهب الفريسيين وقالوا إنه يجب أن يختتنوا ويوصوا بأن يحفظوا ناموس موسى . فاجتمع الرسل والمشايخ لينظروا في هذا الأمر ، فبعدما حصلت مباحثة كثيرة قام بطرس وقال لهم : أيها الرجال الأخوة أنتم تعلمون أنه منذ أيام قديمة اختار الله بيننا أنه بفمي يسمع الأمم كلمة الإنجيل ويؤمنون . والله العارف القلوب شهد لهم معطياً لهم الروح القدس كما لنا أيضاً . ولم يميز بيننا وبينهم بشيء إذ طهر بالإيمان قلوبهم . فالآن لماذا تجربون الله بوضع نير على عنق التلاميذ لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله . لكن بنعمة الرب يسوع نؤمن أن نخلص كما أولئك أيضاً » (إصحاح ١٥ / ٥ ـ ١١) .

وكانت الكلمة الأخيرة ليعقوب [أخي المسيح] : « وبعد ما سكتا أجاب يعقوب قائلاً أيها الرجال الأخوة اسمعوني . . . لذلك أرى أن لا يثقل على الراجعين إلى الله من الأمم . بل يرسل إليهم أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام والزنا والمخنوق والدم ، لأن موسى منذ

أجيالٍ قديمة له في كـل مدينـة من يكرز بـه إذ يقرأ في المجـامع كـل سبت » .

والنصوص التي أوردناها مشوشة مضطربة ومشحونة بآثار التوجيه المسيحي البولسي ، فكيف نستطيع الكشف عما جرى في هذه المناظرة فعلًا ؟ .

إن الوصايا التي ذكرها يعقوب تشكل أسساً لأتباع كنيسة القدس لأن هذه الوصايا تحرم على غير اليهود من المنضمين إلى كنيسة القدس ما حرم على اليهود . وإننا نعثر على هذه الوصايا الأربع في التوراة ، فهي أوامـر أخلاقـية أساسيـة . وكان المفسرون قـد علقوا عـلى هذه الـوصايـا التي أشار إليهـا يعقوب فقـالوا إنها مجـرد إيضاحـات لتيسير العـلاقات بـين اليهـود وغـير اليهـود في المجتمـع المسيحي ، وليست بالضرورة استمراراً لما جاء في التوراة . . .

ومهما يكن فإن موقف بطرس [سمعان] مغاير لموقف يعقوب في هـذا النص من أعمال الـرسل ، فبـطرس يشير إلى أن التـوراة لم تعد مجـدية حتى لليهـود : « ولم يميز بيننـا وبينهم بشيءٍ إذ طهـر بـالإيمـان قلوبهم . فالآن لماذا تجربون الله بوضع نير على عنق التلاميذ لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله » .

إن هنالك تناقضاً كبيراً بين ما يقوله يعقوب وما يقولـه بطرس ، علماً بأنهما كليهما من أتباع عيسى [عليه السلام] في حركة القدس ولم يكن بينهما خلاف . غير أن كلام بطرس [في أعمال الرسل] مستلهم من قلم بولس مباشرة . . .

ويزعم بولس ، وفقاً لأعمال الرسل ، أنه بعد هـذا النقاش عـاد

إلى التبشـير متمتعاً بكـل الصلاحيـات التي تخولـه بـأن يبشر دون أن يُطالب بالعودة إلى التوراة . كيف ذلك وكلام يعقـوب (أخي عيسى عليه السلام) يصر على أن حركة القدس لم تنفِ ما قبلها . إنه نموذج من نماذج التشويش والتناقض في « أعمال الرسل » .

وهنالك تناقضٌ آخر ، فنحن نقرأ في « أعمال الرسل » أن بولس استدعي إلى حركة القدس لاستجوابه حول التهم التي وُجهت إليه ، لكن بولس لم يكن ليعترف بأنه تحت سلطة « حركة القدس » وإنما كان يزعم أن سلطته أعظم من سلطتهم لأنه تلقى الوحي من عيسى [عليه السلام] مباشرة . وبالرغم من زعمه هذا يحضر إلى القدس وينصاع لأوامر يعقوب متظاهراً بأنه لن يهدم الجسور مع المسيحية اليهـودية . أما إذا أردنا أن نعرف ما جرى بتفصيل أكبر فلنقرأ رسالة بـولس إلى أهل غلاطية . في البداية يقدم بولس روايته الخاصة لما جرى في اجتماع القدس ، ثم يصف حادثة لم يرد ذكرها في « أعمال الرسل » فيقول : إن بطرس جاء إلى انطاكية ، وحصل خلاف حاد بينهما ، ثم يتحدث عن مجلس القدس فيوحي بأن دوره أعظم مما ذكر في أعمال الرسل . ويغفل بولس بالطبع أنه تلقى استدعاء من مجلس القدس للإجابة على الإتهامات الموجهة إليه ، بل يقول إنه تلقى وحياً من الله أمره بالتوجه إلى هناك . وهنا لا يذكر بولس أنه استجوب وحوكم في القدس وأن يعقوب [أخا المسيح] كان رئيس المحكمة ، بل يوهمنا بـأنه كـان في مناظرة بين زعماء أنداد ، وأنه كان أمام يعقوب نظيراً . ويقول بولس في رسالته إلى أهل غلاطية : « وأما المعتبرون أنهم شيء مهما كانوا لا فرق عندي . الله لا يأخذ بوجه إنسان فإن هؤلاء المعتبرين لم يشيروا عليَّ بشيء . بل بـالعكس إذ رأوا أني اؤتمنت على إنجيـل الغرلـة كما

بطرس على إنجيل الختان . فإن الذي عمل في بطرس لرسالة الختام عمل فيَّ أيضاً للأمم . فإذ علم بالنعمة المعطاة لي يعقوب وصفا ويوحنا المعتبرون أنهم أعمدة أعطوني وبرنابا يمين الشركة لنكون نحن للأمم وأما هم فللختان . غير أن نذكر الفقراء . وهذا عينه كنت اعتنيت أن أفعله » . (غلاطية ٢/ ٦ - ١٠) .

وهذه النتيجة مغايرة تماماً لما ورد في أعمال الرسل مما جعل المفسرين يتساءلون ما إذا كانت الروايتان لحادثة واحدة فعلاً . وبينما قال مفسرون آخرون أن بولس يتحدث عن مناظرات فردية دارت في « الكواليس » تتحدث رواية أعمال الرسل عن مناظرة عامة . وهذه التفسيرات بدون معنى . لقد كتب بولس إلى أهل غلاطية رسالته في فترة كانت القطيعة بينه وبين زعماء حركة القدس قد احتدت ، ولهذا نراه يتحدث عنهم باحتقار ظاهر . وما دام انه لا يستطيع أن يتحرك دون موافقتهم فإنه يخترع لنفسه سلطة مماثلة لسلطتهم ، ويزعم أنهم عينوه رسولاً إلى « الأمم » واختصوا هم بأمور اليهود . وقد كان واضحاً من أعمال الرسل ومن مصادر أخرى أن زعماء حركة القدس لم يفكروا بالتخلي عن نشاطاتهم التبشيرية بين « الأمم » ولم يعتبروا أنفسهم رسلاً على اليهود . إن مجلس القدس لم يوكل إلى بولس أمر التبشير بين الأمم ولم يمنعهم من اعتناق اليهودية . إن كل ما قاله هو أن هذا الاعتناق ليس ضرورياً .

وهذه بقية رواية بولس للحادثة : « ولكن لما أتى بطرس إلى انطاكية قاومته مواجهة لأنه كان ملوماً . لأنه قبلما أتى قوم من عند يعقوب كان يأكل مع الأمم ولكن لما أتوا كان يؤخر ويفرز نفسه خائفاً من الذين هم من الختان . ورأى معه باقي اليهود أيضاً حتى أن برنابا

أيضاً إنقاد إلى ريائهم . لكن لما رأيت أنهم لا يسلكون باستقامة حسب حق الإنجيل قلت لبطرس قدام الجميع إن كنت وأنت يهودي تعيش أممياً لا يهودياً فلماذا تلزم الأمم أن يتهودوا » .

وبالرغم من تناقضات الرواية فإنها هامة جداً ، إذ لم يكن أحد من مجلس القدس يطلب من أتباع عيسى [عليه السلام] أن يعتنقوا اليهودية أو أن يختتنوا .

وهذه الرواية هامة جداً لأنها تدل على أن الخلاف بين بولس وأتباع المسيح اليهود كان أكثر حدة مما ورد في « أعمال الرسل » . إننا لا نجد في هذه الأعمال أي نقد لبولس أو أي خلاف بينه وبين بطرس . على العكس نجد فيها أن بطرس يتوسط بين بولس وجماعة القدس ويحاول أن يقنع جماعة القدس بأفكار بولس . إن الأسباب التي جعلت بولس ينتقد بطرس هذا النقد اللاذع لا تتفق مع الصورة التي ترسمها أعمال الرسل عنه . والرسالة إلى أهل غلاطية أكثر قرباً إلى الحقيقة التاريخية ، لا لأنها أقدم منها وحسب وإنما لأنها توضح حالة سائدة بين جماعة القدس وبولس ، حالة عملت الكنيسة على طمسها بعد ذلك [ولمصلحة بولس] .

وإذا كان ثمة التباس في موضوع هذا الخلاف فإن ما لا لبس فيه هو أن هذا الخلاف كان حاداً ، ولم يكن محصوراً بين بطرس وبولس بل تدخل فيه يعقوب [أخو عيسى عليه السلام] بدليل أن بطرس اضطر للخضوع إلى من أرسلهم يعقوب كما تقول الرواية . وللوهلة الأولى يظهر هذا الخلاف وكأنه يدور حول ما إذا كان من المسموح لأتباع عيسى اليهود أن يأكلوا مع أتباع عيسى غير اليهود . ولكن ماذا

فعل بطرس [من محرمات] حين كان يأكل مع المسيحيين غير اليهود . يقول بعض المفسرين المسيحيين أنه لم يكن يرفض تناول لحم الخنزير المحرم . وهذا يعني أنه قبل بذلك أفكار بولس الداعية إلى نسخ التوراة والخلاص بالمسيح . إن هنالك عدداً من التأويلات لهذا الخلاف ، وهي تأويلات مشوشة وغير منطقية ، لكنها تركز على جبن بطرس وشجاعة بولس . وهنا لا بد من القول أن كل هذه التأويلات مكتوبة من قبل أنصار بولس . والأرجح أن الرواية كالتالي : وصل بطرس إلى أنطاكية معتقداً أن بولس يحترم وصايا مجلس القدس التي تحرم على المسيحيين غير اليهود أكل اللحم بدمه أو أكل ما أهل للأصنام . ولهذا جلس وأكل معهم . وبينما هو على المائدة دخل عليه مبعوثو يعقوب وقالوا له أن بولس لا يحترم وصايا مجلس القدس ، ويحلل لأتباعه أن يأكلوا ما يشاؤون لأن بعث المسيح نسخ التوراة ، [فتوقف عن الأكل] .

وقد كان هذا الخلاف محصوراً في بولس وبطرس ويعقوب ، لكنه لم يلبث أن جعل مجلس القدس ينكر بولس رسمياً . ونجد في رسالة بولس إلى أهل غلاطية ورسالته إلى أهل كورنثوس شواهد عديدة على أنه كان يصطدم مع مجلس القدس باستمرار بعد خلافه مع بطرس .

ولم يكن بولس في وضع يحسد عليه ، إذ لم يكن يريد أن يظهر بمظهر المنفصل عن مجلس القدس . وكان يحتال ما استطاع الحيلة ليعتقد أتباع المجلس أنه لم ينفصل عنهم وأنه ما زال وفياً ليهوديته . وفي المقابل كان يعلم أتباعه ، كما توضح رسائله ، أن التوراة قد نُسخت . وأغرب من ذلك أنه كان يعترف بأنه كان يكيف خطبه مع الجمهور الذي يستمع إليه ، كما جاء في رسالته إلى أهل كورنثوس :

« فصرت لليهود كيهودي لأربح اليهود . وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس . وللذين بلا ناموس كأنني بلا ناموس مع أنني لست بلا ناموس لله بل تحت ناموس للمسيح لأربح الذين بلا ناموس . صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء . وصرت للكل كل شيء لأخلص على كل حال قوماً » (١ كورنثوس ٩ / ٢٠ـ ٢٢) .

ظاهرياً ، لا يدل هذا المقطع إلا على تحايل بولس من أجل أن يكسب أتباعاً سواء كانوا يهوداً أو غير يهود . ولكنه يحق لنا أن نتساءل ما إذا كان هذا التحايل خصلة فيه وما إذا كان يخادع مجلس القدس بهذه الشاكلة . كذلك نتساءل : لماذا كان بولس يصر على أنه يتبع معتقدات القدس ؟ لماذا لم يؤسس كنيسته مباشرة ما دامت قناعاته مختلفة عن قناعات بطرس ويعقوب ؟ ولماذا لم يقطع الأواصر معهم بعد أن أسس ثلاث كنائس في رحلاته التبشيرية القصيرة آنذاك ؟ لا شك في أن بولس لم يكن يريد أن يقفز في الفراغ . وكان يظن أن مباركة القدس له أمر بالغ الأهمية لأنها تمده بدعم كبير أمام أتباعه في بلاد الرومان واليونان . إن زعماء القدس يصلونه بكل تاريخ بني اسرائيل حتى ابراهيم [عليه السلام] . والإنفصال عنهم علنياً يعني الكشف عن تاريخه الوثني في طرسوس . وهذا ما يخشى أن تكتشفه الجماهير .

ويروي لنا الإصحاح الحادي والعشرون من أعمال الرسل قصة المجابهة بين بولس ونصارى القدس بعبارات ملطفة معتدلة . وقد حاول كاتب النص [لوقا] (وهو من أنصار بولس وأتباعه) أن يخفف من حدة النزاع لكي لا يظهر أن بولس هو الذي أسس هذه المسيحية . ونقرأ في هذا الإصحاح :

« ولما وصلنا إلى أورشليم قبلنا الأخوة بفرح . وفي الغد دخل بولس معنا إلى يعقوب وحضر جميع المشايخ ، فبعد ما سلم عليهم طفق يحدثهم شيئاً فشيئاً بكل ما فعله الله بين الأمم بواسطة خدمته . فلما سمعوا كانوا يمجدون الرب . وقالوا له أنت ترى أيها الأخ كم يوجد ربوة من اليهود الذين آمنوا وهم غيورون جميعاً للناموس . وقد أخبروا عنك أنك تعلم جميع اليهود الذين بين الأمم الإرتداد عن موسى قائلاً أن لا يختنوا أولادهم ولا يسلكوا حسب العوائد . فإذاً ماذا يكون . لا بد على كل حال أن يجتمع الجمهور لأنهم سيسمعون أنك قد جئت ، فافعل هذا الذي نقول لك . عندنا أربعة رجال عليهم نذر. خذ هؤلاء وتطهر معهم وأنفق عليهم ليحلقوا رؤوسهم فيعلم الجميع أن ليس شيء مما أخبروا عنك بل تسلك أنت أيضاً حافظاً للناموس . وأما من جهة الذين آمنوا من الأمم فأرسلنا نحن إليهم وحكمنا أن لا يحفظوا شيئاً مثل ذلك سوى أن يحافظوا على أنفسهم مما ذبح للأصنام ومن الدم والمخنوق والزنا . حينئذٍ أخذ بولس الرجال في الغد وتطهر معهم ودخل الهيكل مخبراً بكمال أيام التطهير إلى أن يقرب عن كل واحد منهم القربان »(٢١/ ١٧ـ٢٦) .

وأول ما نلاحظ هنا تلك اللهجة الملطفة في رواية ما جرى بين بولس وجماعة القدس . إن كاتب « أعمال الرسل » يزعم أن بولس استقبل بحفاوة عند وصوله إلى القدس . ويروي الكاتب أن زعماء الجماعة أشاروا عرضاً إلى أنهم يعرفون بأنه يهودي مواظب على الشريعة لكنهم أشاروا إلى أن آلاف اليهود يشكون في ذلك ، وأنهم لا بد من تطمينهم وذلك بعمل يظهر وفاءه للتوراة ، وإلا فإنهم سيثورون عليه ، « لأنهم سيسمعون أنك قد جئت » .

ولا نستطيع أن نصدق أن زعماء جماعة القدس قد عبروا عن امتعاضهم بهذا اللطف فإذا صح أن الشائعات المنتشرة عن بولس بهذا النكر والاستهجان فلا ريب في أن زعماء القدس كانوا مثل أتباعهم يستنكرونها ويستهجنونها خاصة وأن بطرس (من الغريب أنه لم يكن حاضراً) كان قد أنبأهم بخلافه مع بولس وبملابسات ذلك الخلاف . وعلى نقيض ما لفق فإن هذا الإجتماع كان أشبه باستدعاء رسمي وجهته الجماعة إلى بولس ليحضر إلى القدس فوراً ، إن لم يكن ذلك محاكمة سُئل فيها بولس عن تلك الإتهامات الموجهة إليه . ولا شك في أن بولس لو رفض الإمتثال ولم يعطهم جواباً مرضياً ، لطرد من الجماعة . ويبدو أن بولس لم يعترف في المحاكمة بأنه دعا أتباعه إلى رفض التوراة . وعندها أراد يعقوب والزعماء الآخرون أن يمتحنوه بأن يعلن على الملأ أنه لم يدعِ إلى نسخ اليهودية . وبذلك صار سهلاً على تلامذة المسيح أن يعيدوا بولس إلى جادة الصواب وأن يقنعوا الناس بالرسالة الحقيقية . ولم يكن جماعة القدس سذجاً بالطبع ولكنهم كانوا يرجون أن تكون توبة بولس قد خففت من الأذى الذي ألحقه بولس برسالة المسيح .

ولم يتوصل بولس إلى حل وسط يحفظ ماء وجهه فاضطر إلى التراجع والإعتراف بخطئه علناً . والغريب أن شارحي الأناجيل لم يشيروا إلى خسة موقف بولس ودناءته وكيف أنه كان يعلن في رسائله بأن الختان تشويه وأن التوراة صارت بالية ثم كيف تراجع عن موقفه وأعطى الأولوية للتوراة ، واعترف بأن عيسى [عليه السلام] نبي رسول وليس إلهاً او ابن إلـه .

إن خسة بولس وحربائيته أمام الناس تعودان إلى جبنه . كان في

روما يعلن على الملأ بأنه لا يتلقى تعاليمه من أحد إلا من « المسيح » ، ثم ها هو ينزل على حكم يعقوب [أخي المسيح عليه السلام] ويوحنا الذي يأتي في المرتبة الثالثة . أما عن بطرس فهل أنه لم يحضر فعلاً أم أن بولس أراد أن يظهره في رسائله بمظهر الدمية الوسيط بينه وبين جماعة القدس ؟ .

وهنالك جانب آخر لموقف بولس . أنه لم يكن خائفاً من ردة فعل الزعماء وحدهم بل كان خائفاً من ردة فعل نصارى القدس الذين هددوا بقتله . لقد عرف بولس أنه ارتكب خطأ بمجيئه إلى القدس . ولكي يخرج منها سليماً كان عليه الرضوخ والليونة .

محاكمة بولس

حين توجه بولس إلى هيكل القدس كان يرجو أن يضع حداً لخلافه مع نصارى هذه المدينة ، وكان لا يعرف ما سيُلاقيه من مشكلات وصعوبات . . وتقول « أعمال الرسل » أن يهود آسيا رأوه في الهيكل وثاروا عليه وهاجوا وماجوا فكاد يُقتل :

« ولما قاربت الأيام السبعة أن تتم رآه اليهود الذين من آسيا في الهيكل فأهاجوا كل الجمع وألقوا عليه الأيادي صارخين يا أيها الرجال الاسرائيليون أعينوا . هذا هو الرجل الذي يعلم الجميع في كل مكان ضداً للشعب والناموس وهذا الموضع حتى أدخل يونانيين أيضاً إلى الهيكل ودنس هذا الموضع المقدس . لأنه كانوا قد رأوا معه في المدينة ترو فيمس الأفسسي فكانوا يظنون أن بولس أدخله إلى الهيكل . فهاجت المدينة كلها وتراكض الشعب وأمسكوا بولس وجروه خارج الهيكل وللوقت أُغلقت الأبواب . وبينما هم يطلبون أن يقتلوه نما خبر إلى أمير الكتيبة أن أورشليم كلها قد اضطربت »(إصحاح ٢١/ ٢٧ ـ ٣١) .

من كان يهود آسيا ولماذا كانوا يعادون بولس هذا العداء ؟ لماذا ظنوا أنه ارتد عن يهوديته إذا كان ما يقوله بولس عن تبشيره صحيحاً ؟ « فصرت لليهودي كيهودي لأربح اليهود وللذين تحت الناموس كأني

تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس ، مع أني لست بلا ناموس لله بل تحت ناموس المسيح ، لأربح الذين بلا ناموس » (١ كورنثوس ٩ / ٢٠) . كان بولس لا يعترف إلا للوثنيين الذين تبعوه ، وربما لبعض اليهود بأن التوراة صارت منسوخة . ولم تكن آراؤه الحقيقية معروفة إلا لدى تلامذة عيسى [عليه السلام] ، وقد اضطر هؤلاء إلى أن يرسلوا إليه يهوداً مسيحيين ليعلنوا عن استنكارهم ما يُبشر به . واستدعي بولس مرتين للمثول أمام محكمة النصارى في القدس وتبرير موقفه .

أما بالنسبة لليهود غير المسيحيين فإن المسيحية كانت في نظرهم حركة تقية متطرفة وتريد أن تقاوم الرومان . لم يكونوا يعرفون بالخلافات الداخلية بين أعضاء الحركة ، وبالتالي فإن الذين كانوا يلتقون ببولس أثناء رحلاته التبشيرية كانوا يرونه يبشر بيهودية تتماشى مع العقيدة القائلة أن عيسى [عليه السلام] هو المسيح . [ومن هنا فإن الذين ثاروا في القدس على بولس كانوا أتباع المسيح أنفسهم لا اليهود كما يريد أن يوهمنا كاتب أعمال الرسل] .

وفي جميع الأحوال فقد كان بولس منصرفاً إلى التبشير بين الوثنيين ومعنياً بهم أكثر من عنايته وتبشيره بين اليهود . وكان قد أطلق على نفسه « رسول الوثنيين » . وكان في رسائله الموجهة إلى معتنقي المسيحية من أصل وثني وهي محفوظة في « العهد الجديد » يصرح بأن تطبيق التوراة لا يؤمن الخلاص ، وهذا ما نأى إلى سمع المسيحيين في القدس . لهذا فإن من المعقول أن يهود آسيا الذين جروه خارج الهيكل كانوا من اليهود المسيحيين الذين اختلفوا معه أثناء نشاطه التبشيري في آسيا . وكان يعقوب [أخو عيسى عليه السلام] قد أنذره وحذره من

إمكانية اشتعال هذه الثورة كما جاء في « أعمال الرسل » : « فلما سمعوا كانوا يمجدون الرب وقالوا له أنت ترى أيها الأخ كما يوجد ربـوة من اليهود الذين آمنوا وهم جميعاً غيورون للناموس . وقد أخبروا عنك أنك تعلم جميع اليهود الذين بين الأمم الإرتداد عن موسى قائلاً أن لا يختنـوا أولادهم ولا يسلكوا حسب العـوائـد » (اصحـاح ٢١ / ٢٠ - ٢٢) .

ونجد في بعض المخطوطات القديمة للعهد الجـديد نهايـة مغايـرة لهذه الفقرة من أعمال الرسل : « ولا شك في أن الجموع ستثور عليك حين تعلم أنك هنـا » لكنها مخطوطة تنكرهـا الكنيسـة والمجـامـع المسكـونية . وهـذه الفقرة المطموسـة أعنف لهجة ممـا بقي في العهد الجديد الرسمي وكان يعقـوب [أخو عيسى عليـه السلام] قـد أنذر بولس بأن الجماهير ستثور عليه ، وهي جماهير اليهـود المسيحيين التي تعـد بالآلاف . ونجـد في نص للعهد الجـديد بـاليونـانية أنها « تُعـد بعشرات الآلاف » . وهـذا يعني أن عشرات الآلاف من المسيحيين كانوا في القدس وكانوا بزعامة يعقوب [أخي عيسى عليه السلام] ، كما كانوا على علاقة وثيقة باليهود المسيحيين في الخارج ، وأنهم بذلك يعرفون ما كان يقـوله بـولس وما كـان يفعله . وهم لذلـك حانقـون عليـه . وكان بعض المتـطرفـين منهم مستعـدين لاستخـدام العنف . ونحب أن نُشير هنا إلى أن يعقوب حين يحدثه عن الشائعات المنتشرة بأنه يحث اليهود الذين يعيشون مع الوثنيين على التخلي عن التوراة إنما يشير إلى اليهود المسيحيين فقط .

لماذا يخفي كاتب « أعمال الرسل » هذه الإشارة فيتحدث عن يهودٍ لا عن مسيحيين يهود هم الذين أمسكوا ببولس وجروه خـارج المعبد

وضربوه بل عزموا على قتله ؟ بكل بساطة كان كاتب « أعمال الرسل » يـريد أن يـظهر الخـلاف وكأنـه بين بـولس واليهود ، لا بـين بـولس والمسيحيـين في القدس ، وبينهم تـلامذة المسيـح وحواريـوه والذين لم يعرفوا شيئاً عن دعوى ربوبيته وغير ذلك مما افتراه بولس .

ولم ينقذ بولس من أيـدي المسيحيين في القـدس إلا أمير الكتيبـة العسكرية الرومانية الذي لم يعرف في البداية ما حصل . إن الاصحاح الثـاني والعشرين من « أعمال الـرسل » يعـطي بعض التفاصيـل غـير المنطقية . فمثلاً يتساءل أمير الكتيبة العسكرية الـرومانيـة ما إذا كـان بولس هو الرجل المصري الـذي أثار فتنـة قبل أيـام قليلة . وأن من الصعب علينا أن نتخيل أن مثل هذا السؤال الساذج قد طرحه أمـير الكتيبة العسكرية الرومانية على رجل ثـار عليه أهـل القدس وطـالبوا بهدر دمه ، إن لوقا مؤلف « أعمال الرسـل » يشير إلى مصري مجهـول لكي يضفي على روايته حساً دراميًا . أما الحقيقة فهي أن بولس كان مكروهاً .

ونود أن نُشير هنا إلى أنه من غير المنطقي أن يسمح أمير الكتيبـة العسكرية الرومانية لبولس أن يخطب في الجماهير من على درج الثكنة العسكرية الرومانية . ومن الأرجح أن لـوقا مؤلف « أعـمال الرسـل » كان مواظباً على قراءة أعمال المؤرخين اليونان الذين كـانوا لا يـتركون فرصة لا يخطب فيها أبطالهم خطبة عصماء . وقد أراد لبطله بولس أن يفعل كذلك ، فلفق هذه الكذبة الشنيعة .

أما بقية الأحداث ، كما وردت في « أعـمال الرسـل » فإنها تلقي ضوءاً تاريخياً « وإذ كانوا يصيحون ويطرحون ثيابهم ويرمون غباراً إلى الجو أمر الأمير أن يذهب به إلى المعسكر قـائلاً أن يفحص بضربـات

ليعلم لأي سببٍ كانوا يصرخون عليه هكذا . فلما مدوه للسياط قال بولس لقائد المائة الواقف: أيجوز لكم أن تجلدوا إنساناً رومانياً غير مقضي عليه ؟ فلما سمع قائد المائة ذهب إلى الأمير وأخبره قائلاً: أنظر ماذا أنت مزمع أن تفعل لأن هذا الرجل روماني ، فجاء الأمير وقال له قل لي : أنت روماني . فقال : نعم. فأجاب الأمير : أما أنا فبمبلغ كبير اقتنيت هذه الرعوية ، فقال بولس : أما أنا فقد وُلدت فيها . وللوقت تنحى عنه الذين كانوا مزمعين أن يفحصوه واختشى الأمير لما علم أنه روماني ولأنه قد قيده » (اصحاح ٢٢ / ٢٣ ـ ٢٩) .

هنا نبدأ نفهم لماذا أراد رجل داهية مثل بولس أن يتصرف كالمجانين ويذهب إلى القدس في هذه المرحلة من حياته . كانت القدس تمثل له مأزقاً حقيقياً . وكان الخطر صادراً عن المسيحيين الذين غضبوا وثاروا عليه لما يبشر به من وثنية وافتراء على عيسى [عليه السلام] ، وكذلك من حلفائه القدامى ، أي من الكاهن الأكبر [الذي كان يعمل بولس لحسابه ثم خانه] . برغم ذلك توجه بولس إلى القدس لأن الرحلة تعني له الكثير . إنها رهان حاسم ، فقد كان يتمنى الوصول إلى حل وسط [مع زعماء النصرانية في القدس] . وفي ذلك ما يجنبه القطيعة النهائية التي كان يتخوف منها . أما إذا حاصره أعداؤه ، وهذا أسوأ ما يمكن أن يحصل ـ فإنه يملك ورقة رابحة هي رعويته الرومانية [التي اشتراها بأموال أتباعه] . إن طلب حماية السلطات الرومانية في القدس يسمح له بالهرب والنجاة .

ولا بد هنا من إشارة إلى احتمال آخر ، وهو أن الجنود الرومان لم يجيئوا لأنهم سمعوا الجلبة والضوضاء التي أظهرها الناس كما تزعم « أعمال الرسل » ، وإنما جاؤوا لأن بولس احتاط للأمر وطلب إليهم

أن يتدخلوا في حال إهانته أو إذلاله . ثم إنه لم يكن منعزلاً في القدس ، ويبدو أن أحد أتباعه الوثنيين تروفيمس كان في القدس . كذلك نعلم أن ابن أخته كان في المدينة أيضاً (كما تقول الأعمال) وكان يساعده على تذليل العقبات : « ولكن ابن أخت بولس سمع بالكمين فجاء ودخل المعسكر وأخبر بولس » (إصحاح ٢٣ / ١٦) .

وكان تروفيمس وابن أخته قد أعلما أمير الكتيبة العسكرية الروماني . وهذا ما تُشير إليه الرسالة التي بعث بها القائد العسكري الروماني « كلوديوس ليسياس » إلى العزيز « فيلكس » الحاكم العسكري ، والتي يوضح فيها أن أحداً أخبره بأن بولس روماني : « كلوديوس ليسياس يهدي سلاماً إلى العزيز فيلكس الوالي . هذا الرجل لما أمسكه اليهود [المسيحيون] كانوا مزمعين أن يقتلوه أقبلت مع العسكر وأنقذته إذ أُخبرت أنه روماني » (أعمال الرسل ، إصحاح ٢٣ / ٢٦ - ٢٧) .

ولا شك في أن أمير الكتيبة العسكرية الروماني كان يعرف بأن بولس مواطن روماني قبل أن يتدخل ، وإلا فإنه ربما لم يتدخل قط لأن الرومان لم يروا أن عليهم أن يتدخلوا في المشادات الدينية بين اليهود واليهود . لكن لوقا مؤلف أعمال الرسل ، أراد أن يوهمنا بأن بولس لم يعلن عن مواطنيته الرومانية إلا حين ضربه الناس .

وتقول أعمال الرسل أن بولس لم يعلن عن مواطنيته الرومانية من قبل سوى مرة واحدة حين تعرض لمضايقات ، وذلك أثناء رحلته التبشيرية الثانية إلى فيلبي اليونانية . وقد غضب عليه الوثنيون وجروه أمام القضاة . تقول الأعمال :

« فلما رأى مواليها أنه قد خرج رجاء مكسبهم أمسكوا بولس وسيلا وجروهما إلى السوق إلى الحكام . وإذ أتوا بهما إلى الولاة قالوا : هذان الرجلان يبلبلان مدينتنا وهما يهوديان وينادیان بعوائد لا يجوز لنا أن نقبلها ولا نعمل بها إذ نحن رومانيون ، فقام الجمع معاً عليهما ومزق الولاة ثيابهما وأمروا أن يضربا بالعصي ، فوضعوا عليهما ضربات كثيرة وألقوهما في السجن (... إلى أن يقول) : ولما صار النهار أرسل الولاة الجلادين قائلين اطلق ذينك الرجلين ، فأخبر حافظ السجن بولس بهذا الكلام أن الولاة قد أرسلوا أن تطلقا فاخرجا الآن واذهبا بسلام . فقال لهم بولس : ضربوا جهراً غير مقضي علينا ، ونحن رجلان رومانيان وألقونا في السجن . أفالآن يطردوننا سراً . كلا بل ليأتوا هم أنفسهم ويخرجونا . فأخبر الجلادون الولاة بهذا الكلام فاختشوا لما سمعوا أنهما رومانيان » . . (اصحاح ١٦ / ١٩ وما بعدها) .

وهنا نجد طريقة الإحتيال مكررة ، كما شهدناها أثناء وصفه لثورة مسيحيي القدس على بولس وعزمهم على قتله . هنا يعترف بولس برومانيته بعد أن يُضرب هو وصديقه سيلا . ولكن أليس غريباً أن بولس لم يعلن عن مواطنيته الرومانية حين تعرض للضرب في مناسبات أخرى ؟ في رسالته إلى أهل كورنثوس يصف كيف جلده الجنود الرومان ثلاث مرات فلم يحتج [بأنه روماني] (كورنثوس الثانية ، إصحاح ١١/ ٢٥) . وأغرب من ذلك أن بولس لم يذكر مواطنيته الرومانية في مناسبات نتوقع منه أن يذكرها . كل هذه الملاحظات تجعلنا نعتقد أن بولس لم يحصل على المواطنية الرومانية إلا بعد سفره إلى القدس بفترةٍ قصيرة . آنذاك كان بولس قد جمع مبلغاً كبيراً من

المال ليحمله معه إلى القدس كما جاء في كورنثوس الأولى (الإصحاح ١٦ / ١ - ٤) . ويزعم بولس أن يعقوب [أخو عيسى عليه السلام] قد طلب منه هذا المال ، يجمعه من الذين اعتنقوا المسيحية . وحين وصل بولس إلى القدس جاء بالمبلغ المطلوب ، لكنه أحس أن الأفضل له أن يخفي جزءاً مهماً منه فقد يتعرض لمتاعب مع يعقوب ، وكان بولس يخشى أن تفشل المفاوضات معه . بذلك يستطيع بهذا المال « المنهوب » أن يؤسس كنيسته الخاصة في روما .

ونجد دعماً لافتراضنا هذا في بعض التفاصيل التي نسي لوقا أن يطمسها وغاب عن الكنيسة الرسمية تحريفها . لقد جاء في أعمال الرسل : « ثم بعد أيام جاء فيلكس مع دروسلا امرأته ، وهي يهودية فاستحضر بولس وسمع منه عن الإيمان بالمسيح . وبينما كان يتكلم عن البر والتعفف والدينونة العتيدة أن تكون ارتعب بولس وأجاب أما الآن فاذهب ومتى حصلت على وقت أستدعيك . وكان أيضاً يرجو أن يعطيه بولس دراهم ليطلقه ، ولذلك كان يستحضره مراراً أكثر ويتكلم معه » (الإصحاح ٢٤ / ٢٤ - ٢٦) .

لقد كان بولس إذن سجيناً عند الحاكم الروماني فيلكس ينتظر حكمه فيه . ولا بد لنا أن نُشير إلى أن الحاكم الروماني لا يقبل بمبلغ ضئيل من المال [فرشوة الحاكم ليست كرشوة الجندي] . وهذا يعني أن الحاكم الروماني كان يعلم بأن بولس قادر على أن يدفع وأنه يحتفظ بمبلغ كبيرٍ من المال . وكان بولس نفسه قد أشار إلى هذا المبلغ في الإصحاح نفسه / ١٧ .

وهذا كله يلقي أضواء مشوشة على الحديث الذي دار بين بولس

والقاضي كلوديوس ليسياس : « فلما مدوه للسياط قال بولس لقائد المائة الواقف : أيجوز لكم أن تجلدوا إنساناً رومانياً غير مقضي عليه ؟ فإذ سمع قائد المائة ذهب إلى الأمير وأخبره قائلاً : انظر ماذا أنت مزمع أن تفعل لأن هذا الرجل روماني . فجاء الأمير وقال له : قل لي أنت روماني . فقال : نعم ، فأجاب الأمير : أما أنا فبمبلغ كبير اقتنيت هذه الرعوية . فقال بولس : أما أنا فقد وُلدت فيها . وللوقت تنحى عنه الذين كانوا مزمعين أن يفحصوه واختشى الأمير لما علم أنه روماني ولأنه قد قيده » .

إن هذا الكلام يبدو مزيفاً لأن القاضي [الأمير في الترجمة العربية] كان يعرف مسبقاً أن بولس روماني ، وإلا لم يهب لنجدته ، وإلا لم ينجده أصلاً . وإذن ما جدوى هذا الحوار الإضافي . إن من المستحيل أن يكون بولس قد وُلد رومانياً ، وهو الذي وُلد وترعرع في طرسوس ، غير أن لوقا مؤلف « أعمال الرسل » يريد أن يقنعنا بأن بولس لم يدفع مالاً للحصول على مواطنيته الرومانية ، بل إنه وُلد رومانياً .

وفي كل الأحوال كان لرومانية بولس صدى سيء بين جماعة القدس ، خاصة لدى يعقوب أخو عيسى [عليه السلام] الذي كان يكره الرومان كرهاً شديداً [على الأقل لأجل ما فعله الرومان بأخيه عيسى عليه السلام] . إن أحداً من هؤلاء لم يفكر يوماً بالحصول على المواطنية الرومانية . أما بولس فقد وجد عذراً لنفسه . بل ربما لأجل ذلك أمر أتباعه بالخضوع لسلطة روما « التي أنعمها الله عليها » بل كان يحث العبيد على الخنوع والخضوع لأسيادهم وعدم البحث عن حريتهم كما جاء في الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس : « . . . دعيت

وأنت عبد فلا يهمك . بل وإن استطعت أن تصير حراً فاستعملها بالحري . لأن من دعي في الرب وهو عبد فهو عتيق الرب . كذلك أيضاً الحر المدعو هو عبد للمسيح » (إصحاح ٧ / ٢٠ - ٢٢) . كذلك يكرر في رسالته إلى أهل أفسس : « أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوفٍ ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح » [هنا يطالبهم بأن يعبدوا أسيادهم كما يعبدون المسيح] .

إن احتقار السياسة [الذي كان بولس يزعمه] يرتدي طابعاً سياسياً . إنه بصريح العبارة يعني الإذعان للأمر الواقع . وبهذه الطريقة كان بإمكان بولس أن يجعل من عقيدته المسيحية ديناً رسمياً للأمبراطورية الرومانية . إن امبراطورية عسكرية مثل روما لا تستطيع إلا أن تُهلل لديانة قوامها الطاعة والخضوع .

وكان زعماء المسيحية في القدس حين علموا بحصول بولس على المواطنية الرومانية لقاء مبلغ فطنوا إلى أنه تصرف بالمال الذي جمعه لكنيسة القدس . ولم يكن أمامهم إلا أن يزدادوا سخطاً عليه فيما كان يحاول إقناعهم بأنه لم يجمع المال إلا من أجل المسيح . . .

ولم يقتصر مأزق بولس [في القدس] على خلافه مع المسيحيين . وإذا كان قد صار في مأمن من يد المسيحيين الغاضبين عليه بعد أن حماه الرومان ، فإنه لم ينج من يد الكاهن الأكبر للصدوقيين . . .

ومع مجيىء الحاكم الروماني الجديد فستوس جدد الكاهن الأكبر شكواه مما اضطر بولس إلى الاستنجاد بقيصر روما وطلب المحاكمة أمامه . وهذا حق من حقوقه بعد أن صار مواطناً رومانياً . ونجد في أعمال الرسل قطعة أدبية نادرة يدافع فيها بولس عن نفسه أمام الملك

اليهودي هيرودس اغريباس الثاني . وقد كان دفاع بـولس مؤثراً كـاد معه الملك أن يعلن مسيحيته . وهذا طبعاً كـذب لا يصمد في وجـه التحقيق التاريخي ، إذ كان هذا الملك يكره النصارى كراهية عمياء ، وكان والده قد أعدم يعقوب بن زبيدي .

وماذا يفعل الملك هيرودس اغريبـاس الثاني ؟ يُـرسل بـولس إلى روما بناء على طلبه . أما ما جرى لبولس في روما فإن أعـمال الرسـل تسكت عن ذلـك ، وليس هناك إشـارة تاريخيـة إلى بولس بعـد هذه الفترة . من المعقول أنه أقنع السلطات الرومانية بأنه أنهى علاقته مع نصارى القدس المخربين . ولا شك في أن مواطنيته الرومـانية (التي اشتراها من مال المسيحيين الأبرياء) قد خدمته كثيراً .

أما أساطير الكنيسة فتزعم أنه مـات شهيداً في رومـا . وهذا مـا ليس له دليل تاريخي أبداً . ومن الأرجح أنه عاش في روما حتى سن متقدمة وشيد فيها كنيسته وكرس لها وقته وحذقه والمال الذي نهبه . أما الأناجيل وأعمال الرسل فلا تذكر شيئاً عن دعوى استشهـاده على يـد الجنود الرومان .

صَانِعِ الاسْطورَة

معظم الكتب التي تتحدث عن بولس تنتهي ، بشكلٍ عام ، إلى فحص لاهوته وعقائده الخاصة بالقدرية والخطيئة والتثليث والخلاص والبعث . إن هذه الكتب تخلص إلى القول أن بولس لم يكن حاسماً في هذه المسائل على الرغم من أنه هو الذي افتراها وشق طريقها . ولا شك في أن بولس لم يكن دكتوراً في التشريع غير أنه كان ذا خيال جموح . ولهذا أرى من الأولى بي ، وأنا مؤرخ الأديان ، أن لا أدرسه لاهوتياً ، بل باعتباره صانعاً للأسطورة ، خاصة وأنني أعتقد أن الدين لا يقوم على اللاهوت أساساً . . .

إننا لا نستطيع أن نقبل بالصورة التقليدية لبولس التي ترسمه وهو يضع الأطر الفكرية واللاهوتية لتعاليم عيسى [عليه السلام] ، لأن قبولنا بتلك الصورة التقليدية يعني الإقرار بأن عيسى [عليه السلام] هو مؤسس هذه المسيحية وأن بولس كان وريثاً له . وهذا غير صحيح . إن الحقيقة التاريخية التي كتبنا من أجلها هذا الكتاب تقول أن المسيح لم يؤسس ذلك . وعلى الرغم من أن بولس أعطى عيسى [عليه السلام] دوراً أولياً فإن هذا لا يعني أنه مؤسس هذا الدين مثلما أن هاملت لم يكتب مسرح شكسبير .

إن حجر الزاوية في أسطورة بولس هو مجيء مخلص من السماء ، وكل شيء يصدر من هذا الاعتقاد . فعندما نؤمن بأن الخلاص سيهبط علينا تفقد المبادرة البشرية قيمتها وفعاليتها ، وينتج عن ذلك ، منطقياً ، عقيدة القدرية . وحين يهبط المخلص السماوي هبوطاً من السموات فإنه لا يكترث بمن يستأهل الخلاص مهما كانت أعمال الإنسان (إن الإنسان وعمله هنا يفقدان أهميتهما) وليس هناك من يعرف من سيستفيد من الخلاص . بل من المستحيل علينا أن نعرف . إن المخلص هو الذي ينتقي . وماذا يفعل المرء كي يخلص ؟ لا شيء سوى أن يؤمن بأن هنالك مخلصاً سيهبط من السماء . الإيمان فقط ! أي الإستسلام الروحي والجسدي لهذا المخلص الإلّهي والتخلي عن أي أمل آخر . إن هذا الطلسم المعمى هو الذي أثار خيال اللاهوتيين اللاحقين فملأوا به كتب اللاهوت المسيحية ، غير أن وراء ذلك دائماً أسطورة . . . أسطورة الخلاص الهابط من فوق .

ولا شك في أن نزول هذا المخلص الإلّهي يستلزم عناصر سردية أخرى : وجود مملكتين ؛ مملكة السماء النورانية ، ومملكة الأرض الظلامية . إن ظلمات الأرض تتحكم بالمحبس الذي يجب أن نتحرر منه ، وليس على الأرض من يستطيع أن يحررنا منه . إن سجننا الحق هو إنسانيتنا . وانطلاقاً من هذه الدعوى ولدت عقيدة الخطيئة الأصلية ، وهي عبارة عن قراءة خاصة لما ترويه التوراة عن « طرد » آدم [عليه السلام] من الجنة . [وقد اعتبرت الكنيسة ذلك خطيئة أصلية في الإنسان وركبتها على أعناق بني البشر من قبل أن يولدوا] .

وإذا عدنا إلى المصادر الغنوصية نجد أنها محشوة بخرافات من هذا النوع . وقد دلت الأبحاث الحديثة على أن هذا الاعتقاد كان معروفاً

قبل المسيحية على عكس ما يظن الرأي العام ، وأنه بعد ذلك إتخذ أشكالاً مسيحية . إن فحوى ما يقوله الغنوصيون هو أن هذا العالم محكوم بالشر ولا بد من أن يأتيه زائر من عالم النور ، أو ربما زوار يقدمون سر المعرفة (الغنوص) إلى النخبة المختارة ويحررونها بذلك من عبودية هذا العالم .

هذه هي الغنوصية التي نراها في رسائل بولس على رغم أنها ممتزجة بعناصر أسطورية أخرى ذات طبيعة مختلفة . إننا نعثر في رسائل بولس على تلك السمات الأساسية التي نجدها في الغنوصية ، أي أن العالم غارق في الشر ولا بد له من معين يهبط عليه من فوق دائماً . وبالطبع يعدل بولس من هذه العناصر الأسطورية ، فلا يقول مثلاً بأن عالمنا مخلوق من قبل قوى شريرة ، لكنه يقول إن عالمنا مجبول بالشر ومحكوم بالشر ولذلك لا بد للخلاص من أن يهبط عليه من فوق .

وعلينا أن لا نخفف من أهمية الشر في فكر بولس ، أو في أساطيره بتعبير أدق . إنه حين يشير إلى هذه القوة أو هذه القوى الشريرة إنما يستعير اصطلاحات من الغنوصية ، فهو يصف هجوم قوى الشر على عيسى [عليه السلام] بهذه العبارات : « بل نتكلم بحكمة الله في سر. الحكمة المكتومة التي سبق الله فعينها قبل الدهور ليمجدنا . التي لم يعلمها أحد من عظماء هذا الدهر ، لأن لو عرفوا لما صلبوا رب المجد » (١ كورنثوس ، إصحاح ٢ / ٧ ـ ٨) .

ومن المعروف لدارسي الغنوصية أن تعبير« امراء العالم » (الترجمة الإنكليزية والفرنسية متفقة على « أمراء العالم » بينما العربية « عظماء العالم ») إشارة إلى قوى الشر التي تسيطر على هذا العالم . ويتصور بولس تدرجاً كاملاً لقوى الشر المستقلة تماماً عن الله [سبحانه] ،

على الأقل في مرحلة من مراحل التاريخ الكوني . ولقد جاء المسيح [عليه السلام] إلى العالم أصلاً لدحر هذه القوى الشريرة . ونحن لا نجد هذا التفوق لقوى الشر حتى في الديانة الفارسية القديمة [المانوية] تسيطر عليها ثنائية الخير والشر . وإن مؤرخ الأديان لن يعثر على مصدر لهذه الثنائية الحادة عند بولس إلا في أعمال كبار الغنوصيين ، فبولس ينتمي إلى تيار غنوصي ، كان يعتقد بأن للتوراة مصدراً شريراً شيطانياً ، وإنها تحمل معنى خفياً سحرياً وراء معناها الظاهر .

ومع أن بولس وأتباعه ثاروا على الناموس واعتبروه ضد الدين المسيحي الجديد فإنهم أسسوا شرائع وطقوساً ونواميس أكثر تعقيداً . وإذا كان بولس قد استوحى الكثير من أفكار الغنوصيين فلماذا أدانت الكنيسة المسيحية الغنوصية واعتبرتها كفراً ؟ إن هذا ما جعل بعض المؤرخين المسيحيين ينكرون الطابع الغنوصي عند بولس . والحقيقة أن بولس مزج عناصر من الغنوصية مع عناصر من الأديان السرية عاشها في بيته بطرسوس ، وهي أديان كانت تقول بموت الإلّه وبعثه ، ذلك لأن الغنوصية لا تقول بالفداء . إن المخلص في الغنوصية لا يأتي ليضحي بنفسه من أجل البشرية بل من أجل أن يمنحها المعرفة ، أو ليمنحوها من يستحقها على الأقل .

أما في مسيحية بولس الغنوصية فإن معرفة المخلص ليست إلا معرفة قوة الخلاص التي يأتي بها في تضحيته الخاصة . وهي معرفة لا تتخذ معنى إلا في المشاركة في التجربة السرية للتضحية . لذلك أنكرت المسيحية الرسمية الغنوصيين المسيحيين لأنهم رفضوا هذا المفهوم للمعرفة النابعة من التضحية . كان المسيحيون الغنوصيون

يعتبرون عيسى [عليه السلام] رسولاً جاء بمعرفة باطنية ولم يجيء بمعرفة خلاص بالجسد . كذلك كان هؤلاء ينكرون موته على الصليب . . . أما بالنسبة لبولس فقد كان من الضروري أن يموت المسيح شهيداً على صليبه من أجل خلاص البشرية من قيد الخطيئة التي استأهلت الموت بسببها ، ولهذا لا بد للإله المخلص أن يحل في جسد بشري ليقوم بتضحيته .

وقد فضل بولس هذه الدرامية البدائية المعروفة في الديانات الباطنية القديمة على تعقيدات الفكر الغنوصي الخالص ، ثم أضاف إلى ذلك سطوة الشر وقوته ، وأعلن أن قوى الشر أخضعت المسيح [عليه السلام] لقوتها فضحى بنفسه وبذلك خلص البشرية . وهذا ما نجده في الديانات الباطنية التي كانت منتشرة حول المتوسط .

ولم يكن الدين الذي أسسه بولس مزيجاً من الغنوصية والأديان الباطنية وحسب ، بل إنه أضاف إليه عناصر أخرى استمدها من اليهودية . وأهم عنصر يهودي أخذه هو التاريخ ، ذلك لأن الديانات الباطنية القديمة لم تكن تاريخية . وكان بولس بحاجة إلى البعد التاريخي في دينه الجديد ، فالديانات الباطنية فردية تتحدث عن تضحية إله معيَّن ، والغنوصية كونية غامضة . وكان لا بد لبولس من العودة إلى تاريخ يستلهم شخصياته ويجذر دينه . وقد حول بولس هذا التاريخ حسب مشيئته ، فصار خروج اليهود من مصر وعبورهم طور سيناء إلى فلسطين مجرد رمز لخلاص الفرد عبر تضحية المسيح . ولقد عزز العهد القديم الكنيسة المسيحية بأن جعل لها مرجعاً تاريخياً قديماً وجذوراً .

وهذا الجمع بين العناصر الثلاثة خطر على بال بولس في لمعة عبقرية على طريق دمشق ، ولم يكن تصوراً تهيأ في ذهنه ببطء . كان

ذلك عمل شاعر خارق بدون ريب . ولقد أثر دينه على الهيلينيين أكثر مما أثر على اليهود الذين حاربوه ، لأنه كان ديناً أقرب إلى مفاهيم الهيلينيين .

إن الأسطورة التي اخترعها بولس تلقت كامل تتويجها في الأناجيل التي كُتبت تحت تأثير بولس ولمصلحة كنيسته . . بذلك انتشرت أسطورة بولس وحملت معها بعض السلوى لبعض البشر لكنها أنتجت شروراً كثيرة . إن التشويش الذي أثاره بولس حول أصله ، عن عمد ، لم يسمح لكثيرٍ من قراء العهد الجديد أن يفكوا خيوط الطلسم البولسي ، خصوصاً بالنسبة لشخصية عيسى [عليه السلام] وما يُسمى خطأ بكنيسة القدس ، وبمغامرات بولس نفسه . وشخصية بولس تستحق الدرس لما في ذلك من عواقب على تاريخ المسيحية . أما حياته الحقيقية فإنها تنتمي إلى عالم المغامرات أكثر مما تنتمي إلى حياة القديسين كما توهمنا الكنيسة .

لقد انطلق بولس من زوبعة التأثيرات الدينية التي كانت تتزاحم في رأسه فخلق مزيجاً مشحوناً بالخيال ، مزيجاً معداً لأن يكون بعد ذلك ـ شئنا أم لم نشأ ـ أساس الثقافة الغربية وجوهرها .

الفهرس